(١)

مجنون العرب

بين رعد الغضب وليالي الطرب

مقامات عصرية

opelikandl.com

obeikandl.com

١

المجنون .. ليس أنا !!

مقدمة

المجنون ليس أنا.. هذا ما أريد أن أوضحه – منذ البداية – حتى لا تختلط الأمور، لكن هذا التوضيح الحاسم لا يعني أني أتبرأ من «مجنون العرب» فأنا أعترف – دون أن يتم تعذيبي جسدياً – بأن لي صلة حميمة به، فهو صديق صادق قديم، لدرجة أني لا أستطيع أن أصبر على فراقه ولو لبعض الوقت، كما أنه لا يحس بنعمة الأمان إلا إذا كان قريباً مني، بل إننا – بكل صراحة – ننام على سرير واحد.. هذا إذا نمنا.. نظراً لأننا ممن يعشقون السهر، ويغتالون النوم في الليل، إلى أن يعلن الفجر – بإشراقته – أنه قد تجلى وظهر.

وأعترف أيضاً بأني أحس بالوحشة والخوف حين يبتعد عني «مجنون العرب» لكي يتركني وحدي مع العقلاء، ولكي يقوم وحده برحلات غريبة، ومغامرات لا يصدقها أحد، لكنه يزعم أنها رحلات ومغامرات حقيقية، بينما أراها أنا، مجرد شطحات وهمية، ولكن لأن الحب بيننا ليس من طرف واحد، فإنه يشعر – هو الآخر – بالوحشة والخوف، حين أبتعد عنه، حتى أستطيع أن أمارس عملي الصحفي الذي انهمكت فيه منذ أن عملت في دولة قطر ابتداء من يوم ١٠ مايو سنة ١٩٧٩، حيث ألتقي مع العقلاء من الشعراء والأدباء والنقاد، لأتلقى منهم ما تجود به قرائحهم، أو نتحاور حول أحدث الإصدارات الأدبية أو الفكرية، وقد أهرب أحياناً من

مكتبي، حتى يتسنى لي زيارة الأصدقاء الأحباء، وكلهم – بالطبع – من العقلاء وفي مقدمتهم أخي أو ابني الحبيب الشاعر المبدع محمد بن خليفة العطية.

هؤلاء الأصدقاء جميعاً يتابعون – عن بعد – رحلات ومغامرات «مجنون العرب» دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب منه، وإن كانوا يعرفون أخباره ويكتشفون أسراره مني أنا، فهم يسألونني باستمرار، عن أخباره وعن أسراره التي أشرحها أو أفضحها أمامهم، دون أن أهتم بحكاية أن إفشاء الأسرار يعد جريمة، أو على الأقل فإنه عيب ممقوت.

غير هؤلاء العقلاء، هناك أصدقاء كثيرون لي من مختلف أقطار أمتنا العربية، يحبون أن يرصدوا تحركات «مجنون العرب» من خلال سهرات جميلة مطولة، كلما أتيح لي أن ألتقي معهم في القاهرة أو الإسكندرية، وفي بيروت أو حلب أو أبو ظبي أو سكيكدة وبجاية وفاس، أو في بغداد الغالية، قبل أن تجثم على صدرها قوات الاحتلال الأجنبي التابعة للإمبراطورية الأمريكية، والتي يسميها بعضهم، وليس أنا، إمبراطورية الشر.

حين أسهر مع «مجنون العرب» ينبغي أن أصدق كل ما يحكيه ويرويه لي، حتى يظل «تطبيع العلاقات» موصولاً وممتداً ما بين العقل والجنون من جهة، ومن جهة ثانية، فإني أصدق المجنون، لأن لديه حيلاً ووسائل، لا يحلم بها العقلاء، فأنا متأكد من امتلاكه لأسلحة إثارة شاملة، من بينها طاقية الإخفاء، وبساط الريح، والصاروخ العابر للزمان، وبهذه الأسلحة وحدها، يتحرك المجنون، أينما شاء، دون أن يستطيع أحد منعه، أو اعتقاله ووضعه في معتقل «جوانتانامو» أو سواه من المعتقلات في مختلف أرجاء الكرة الأرضية.

يحكي لي المجنون أنه قد التقى مع امرئ القيس الذي كان يرتدي بنطلون «جينز» ويركب – بدل الجمل – سيارة مرسيدس بنز، كما يروي لي أن امرأ القيس قد تبرأ من معلقته القديمة الشهيرة «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»، وأنه قد كتب معلقة معاصرة جديدة، ينوي أن يعلقها – لا على أستار الكعبة – وإنما في إحدى حدائق واشنطن، وينبغي أن أصدق المجنون فيما يحكيه وما يرويه، كما ينبغي أن أصدقه حين يزعم أنه قد التقى مع عمر بن أبي ربيعة الذي يسهر في ملهى «الليدو» وفي «كازينو بديعة» بعد أن رفض الانغماس في مستنقعات السياسة، وتركها لبني أمية، مقابل أن يتركوه وشأنه مع

النساء، سواء أكن قرشيات، أو باريسيات!

حدثني «مجنون العرب» كذلك عن لقاءات جمعته مع عنترة بن شداد الذي نهض من الرماد، ثم انطلق ليواجه أسراب الجراد التي اجتاحت حقول الطين والنفط في آن واحد، وكيف أن عنترة قد شاهد الجبناء وهم يعتصمون بجبل السكوت، تاركين من يموت يموت. وإلى جانب لقاءاته مع عنترة، أيقظني المجنون، ذات مرة، ليروي لي أن زهير بن أبي سلمى، قد تحول من مبصر إلى أعمى، لكنه استطاع أن يصحبه إلى عيادة للعيون، حيث استعاد بصره عن طريق الجراحة بأشعة الليزر، ولابد أن أصدق المجنون طالما أنه يمتلك أسلحة لا يحلم بمثلها العقلاء.

استكمالاً لمغامرات المجنون، فإنه التقى مع المتنبي الذي كان يتصدى للبراكين والحمم في بغداد، كما التقى مع الملك خوفو الذي خرج غاضباً من الهرم في الجيزة، وفضلاً عن هذا فإن المجنون شاهد بعينيه أبا نواس، نائماً على أحد الأرصفة، بعد أن لعبت برأسه الخمر، التي هي «الراح» وهي «الطلا» وهي «القهوة» وهي «الصفراء» التي لا تنزل الأحزان ساحتها، وقد فند أبو نواس للمجنون – بعد أن أفاق – أكذوبة أنه قد تذلل للأنجاس، لكي يعينوه في وظيفة كناس. ولم يكتف المجنون بهذا، بل إنه روى لي أن الأفعى قد صادقت الغول، ولهذا أصبح أبو نواس في حالة ذهول، وإن كان قد أكد أن الليل لن يطول.

على الرغم من أني أصدق ما رواه لي صديقي «مجنون العرب» إلا أني – في الحقيقة – أشك في أنه التقى مع أمل دنقل في المجلس الأعلى للثقافة بمصر، وأن المتنبي قد حضر اللقاء العاصف الذي حاول أن يخفف من سخونته أحد الذين يحبون النظام ويحرصون على ديمومة الاستقرار. كما أنني أشك- بصورة أكبر –في اللقاء الذي جمع بين «مجنون العرب» ومحمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب في البصرة، حيث حمل كل منهم بندقية لكي يناضلوا ضد المحتلين الأميركان وأذنابهم البريطانيين، كما أنهم كانوا يقومون باستجواب الغزاة الذين يقعون في الأسر، بعد أن عاملوهم أحسن معاملة، وفقاً للشريعة الإسلامية، وما جاء بعدها بقرون من اتفاقيات جنيف الخاصة بحقوق الأسرى.

على الرغم من كل ما جرى في أرض العراق، يؤكد «مجنون العرب» أن لكل زلزال توابع، وأن لكل زمان أفراحاً وفواجع، كما أنه يؤكد في لاميته الجديدة التي سماها «لامية الفرات» والتي تختلف عن «لامية العرب» للشنفري، أو «لامية العجم» للطغرائي، أن هذه اللامية ترفض اليأس والسبات، وتدعو الثوار للثبات.

بعيداً عن السياسة، وحتى لا أنساق وراء «مجنون العرب» الذي يبدو أنه يريد أن يورطني، لابد أن أقول إنه قد روى لي عن لقاء جمعه مع الشاعر الأندلسي الشهير، عاشق ولادة بنت المستكفي، وهو ابن زيدون، حيث انطلق الاثنان للبحث عن كنز مدفون، كما أن المجنون قد أضحكني – حقاً – حين روى لي حكاية الحمار الذي تعرف عليه بعد أن حاول الانتحار، احتجاجاً على الانحدار الذي وقعت فيه الأغنية العربية، التي تسمى «شبابية».. وكيف أن الحمار نفسه قد جرب الغناء فتألق، وعلى سواه تفوق. كما روى لي المجنون كيف أن مجنون ليلى – قيس بن الملوح قد سقط أمام عينيه بالضربة القاضية، في أقل من ثانية، وأن الملاكم الذي أوقعه لم يكن محترفاً للملاكمة، وإنما هو شاعر قوي البدن، هو عمر بن أبي ربيعة، وللأمانة فإن الضربة القاضية قد جعلت مجنون ليلى يفيق من أوهامه، خاصة وأنه كان قد اتصل بالموبيل مع ليلى العامرية، فإذا بها تخبره – بمنتهى اللامبالاة – أنها مشغولة بإقامة الحفلات الصاخبة، لكي تتعرف في كل حفلة على مجنون جديد من المجانين الكثيرين الآخرين.

بمنطق العقلاء، يبدو أن جميع من التقى معهم «مجنون العرب» قد رحلوا منذ قرون موغلة في الزمان، أو منذ عدة سنوات قريبة، ولم يكتف المجنون بهذه اللقاءات، وإنما التقى مع شاعر شهير ممن يكتبون قصائدهم بالعامية المصرية، هو عبد الرحمن الأبنودي، الذي تواطأ مع الكاتب الفنان الدكتور سمير سرحان، وكانت ثمرة التواطؤ ظهور «أيامي الحلوة».. وإذا كان امرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة وزهير بن أبي سلمى والمتنبي، وحتى الجواهري وأمل دنقل والسياب لا يستطيعون الآن أن يتقدموا بإفاداتهم أو شهاداتهم التي تثبت أو تنفي أن «مجنون العرب» قد التقى معهم، فإن أية محكمة دولية تستطيع الآن استدعاء الأبنودي وسمير سرحان قبل رحيله عن عالمنا، لكي يدليا بشهادتيهما ويقدما إفادتيهما.

يستطيع «مجنون العرب» أن يحكي لنا كيف تجول وتنقل ما بين رعد الغضب وليالي الطرب، ومن حق العقلاء بالطبع أن يصدقوه أو أن يكذبوه. أما أنا فلابد أن أقرر – بوضوح – أني، برغم الحب المتبادل بيني وبين «مجنون العرب» لا أستطيع أن أتفق معه في موضوعين مهمين، وحساسين، أحدهما موضوعي، والثاني فني، وربما يرجع سر عدم الاتفاق إلى طبيعة شخصية كل منا، فأنا – مثلاً – أخاف من السلطة، لدرجة أني أرتعش إذا وجدت نفسي فجأة أمام رجل شرطة، حتى لو كان منهمكاً – لا قدر الله – في التهام طبق سلطة، أما «مجنون العرب» فإنه إنسان متهور، ولا يخشى أن يحبسه أي متسلط في زنزانة فردية، أو أن يحشره في زنزانة جماعية، ولهذا السبب فإنه – كما يزعم – قد واجه نيرون بشجاعة، كما تصدى لهولاكو ببراعة، ووقف في وجه الإمبراطور طائش بن راعش الذي يقتلع الخضرة والحشائش ويرتكب الفواحش. من هنا يحق لي، قبل فوات الأوان، أن أعلن براءتي من الآراء والمواقف المتهورة التي أبداها هذا المجنون تجاه كل هؤلاء الملوك والأباطرة والرؤساء، مع ضرورة التأكد والتأكيد على أنه – وحده – يتحمل عاقبة ما قد تصل إليه الأمور مع أي ملك أو إمبراطور أو رئيس، فأنا – والحمد لله ويحكم ما وهبني من عقل – أعرب لهؤلاء جميعاً عن أعمق آيات التقدير، خاصة إذا كانوا ما يزالون يعضون على لجام السلطة، بأسنان فولاذية، وإرادة حديدية، بصرف النظر عن حب المحكومين لهم أو استثقالهم لظلالهم.

هذا عن الموضوع الأول، أما الموضوع الثاني الذي أختلف فيه مع صديقي «مجنون العرب» وهو موضوع فني، كما قلت، فإنه يتمثل في تصوره هو عن طريقة كتابته لرحلاته ومغامراته، فهو يتصور أنه قد أتى بجديد، أما أنا فأرى أنه ينهج نهج «المقامات» التي كتبها من القدماء بديع الزمان الهمذاني والحريري، كما كتبها من بعدهما بقرون وقرون، ناصيف اليازجي، والعبقري بيرم التونسي.

وفي هذا السياق يرى أحد أساتذتي العمالقة، وهو العلامة الدكتور شوقي ضيف أن «.. بديع الزمان هو أول من أعطى كلمة (مقامة) معناها الاصطلاحي بين الأدباء، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعها تصور أحاديث تلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث. وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص

قصيرة، يتأنق في ألفاظها، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم..».

على الرغم مما بيني وبين المجنون من أسرار، لا يصح أن أفشيها، إلا للأصدقاء وحدهم، فلابد أن أذكر هنا أنه قد اغتاظ مني أشد الغيظ، حين واجهته بما قاله الدكتور شوقي ضيف،وأكدت له أنه لم يأت بجديد في رواية أخبار رحلاته ومغامراته، بل إني اعترضت - بشدة - على عادته الغريبة التي لم يستطع التخلص منها حتى الآن، وهي التزامه بأسلوب السجع، وقد ضحك المجنون ضحكة ماجنة، كأنه يقلد ضحكات صديقه عمر بن أبي ربيعة، عندما قلت له بالحرف الواحد: يا مجنون.. لماذا تلتزم بأسلوب السجع.. هل تظن أنه يلذ للسمع.. وأنه يؤثر في قلوب الجمع.. ويجري على خدودهم الدمع؟

أعترف بأن المجنون قد أحرجني ودحرجني في بئر الخجل، حين قال لي: يا صديقي العاقل.. إنك قد استخدمت السجع الذي تنهاني عنه أو تطالبني بالابتعاد عنه، ولابد أن أذكرك - في هذا المقام وليس في هذه المقامة - بما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي:

أحرام على بلابله الدوح..

حلال للطير من كل جنس؟

فجأة.. وجدت المجنون يقول لي: إذا كنت قد ذكرت بديع الزمان والحريري واليازجي وبيرم التونسي، فإنك نسيت إنساناً عبقرياً، دون أن تتنبه إليه، وهو شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري الذي أبدع «رسالة الغفران» وقد التقى خلالها بشعراء وأدباء عمالقة، ممن سبقوه في الزمان أو ممن عاصروه.

تبقى نقطة تتعلق باللغة، وباختصار فأنا و«مجنون العرب» متفقان تماماً على ضرورة استخدام لغتنا العربية الفصحى العريقة، وهذا ما يجده المتابعون لهذه المقامات في معظمها، لكن «مجنون العرب» شاء أن يستخدم اللهجة الخليجية المتداولة في قطر عندما كتب بعض رحلاته ومغامراته، وذلك لأنه يعيش في قطر منذ سنوات طويلة، كما أنه استخدم العامية المصرية، خاصة عندما التقى مع الأبنودي. ومن ناحيتي فإني

سأحاول أن أشرح الكلمات التي تبدو صعبة في بعض المقامات، وأمري لله.

قلت لمجنون العرب: «اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»، ولكن اسمح لي الآن أن أشكر كثيرين ممن حثوني أن أسجل رحلاتك ومغامراتك بأسلوبك المعجون بالسجع الذي يلذ له السمع .

أختتم هذه السطور بإعادة التأكيد على أن المجنون ليس أنا.. وإنما هو صديقي الذي لا أصبر على فراقه ولو لبعض الوقت، كما أنه لا يحس بنعمة الأمان إلا إذا كان قريباً مني، ومع هذا فلابد أن أكرر أنه وحده المسؤول عن رحلاته ومغامراته، وأني لم أتواطأ معه إلا بتسجيلها على الورق.. على امتداد صفحات هذا الكتاب، وأخيراً فإني أقر بأني قد كتبت هذه السطور في نفس اليوم الذي وُلدت فيه منذ ستمائة سنة، وفقاً للتقويم الخاص بمجنون العرب.

حسن توفيق

٣١ أغسطس ٢٠٠٣

obeikandl.com

٢

امرؤ القيس يرتدي الجينز .. ويركب مرسيدس بنز

لأن مجنون العرب.. يحب أن يرى العجب.. فإنه لا يحب أبداً أن يغمض عينيه.. كما أنه يبيح لنفسه أن يتجسس بأذنيه.. وهكذا يستطيع أن يرى لمسات العشاق للعشاق.. كما يستطيع أن يرصد همسات الأشواق.. ولا يتردد المجنون في استخدام ما لديه من حيل.. طالما أنها تفتح أمامه السبل.. فلديه طاقية إخفاء.. تخفيه عن الأنظار حين يشاء.. ولديه بساط الريح.. وبفضله يتنقل وهو مستريح.. كما أن لديه صاروخاً عابراً للزمان.. يمكنه من الوصول بكل أمان.. إلى أي زمان كان.

بفضل هذه الحيل وسواها.. وبفضل وسائل أخرى أهديت له أو اشتراها.. تمكن مجنون العرب.. أن يتنقل دون أي تعب.. ما بين مكان ومكان.. وأن يطير من زمان إلى زمان.. وأن يلتقي مع أصدقاء أعزاء.. لم يعودوا أحياء.. وأن يستمع إلى شعراء عظماء.. ممن غابوا عن الدنيا منذ سنوات وسنوات.. أو حتى منذ قرون غرقت في بحر الظلمات.. ومع كثرة التنقلات والأسفار والرحلات.. أتيح للمجنون أن يتعرف وأن يتجسس.. كما أتيح له أن يتنفس.. بين رعد الغضب.. وليالي الطرب.

★★★

تاه المجنون ذات مساء.. في قلب الصحراء.. لكنه أحس بالفرح عندما لمح ثلاثة رجال.. يقفون عند أحد التلال..

أكبرهم يضع على رأسه الغترة والعقال.. لكنه يرتدي بنطلون جينز.. ويستند على باب سيارة مرسيدس بنز.

هز المجنون رأسه بالتحية.. وسألهم عما إذا كانوا يعرفون اللغة العربية..فضحك أحدهم قائلاً: نحن نعرفها رغم أنها أصبحت من اللغات الثانوية.. أما الإنجليزية فإننا نجيدها لأنها هي اللغة الأساسية.. وتلطف أكبرهم ووضع يده على كتف المجنون.. وقال له: ولماذا لا تسألنا عمن نكون؟!.. سأروي لك الحكاية.. من بدئها حتى النهاية.

هذان الرجلان صديقان.. وأنا وهما هربنا من سجن الزمان.. بعد أن قمنا برشوة السجان.. وقد جئنا إلى هنا لاستعادة الذكريات.. في هذه المنطقة بالذات.. والمنطقة إذا كنت تجهل.. اسمها منطقة «دار جلجل».. زمان كان هنا بلاج من أحلى البلاجات.. وكانت تستحم فيه أجمل الفتيات.. وقد تغزلت فيهن وكتبت عنهن معلقة.. لكني أعترف الآن بأني جعلتها طعاماً للمحرقة.. نظراً لأني أكتب الآن معلقة جديدة.. وسأعلقها في إحدى حدائق واشنطن البعيدة.

قال المجنون بشيء من الحسم:

★ لكني حتى الآن لم أتشرف بالاسم!..

– آه.. معك حق.. اسمي القديم هو امرؤ القيس.

★ أكاد لا أصدق ما يقال.. أأنت بالفعل الشاعر الذي كان يبكي على الأطلال.. ويقول لصديقيه:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

– هذا ما كان.. أيام زمان.. أما الآن فإني كتبت – كما قلت لك – معلقة جديدة.. وسأسمعك حالاً بعض أبياتها الفريدة.

.. وتنحنح امرؤ القيس ومال.. ثم كشخ الغترة والعقال.. وقال:

قفا نبك من ذكرى دجاج متبل

يطش بزيت حيث يقلى بفلفل

ويوضع في المقلاة يحمر زيتها

بأفران مكروويف بالشبس تمتلي

فقد ضاق بطني بالجمال وأكلها

وأصبح كنتاكي قريباً لمنزلي

أفاطم مهلاً.. أين صحن المخلل

وإن كنت قد نظفت صحني فهرولي

وما نبشت كفاك إلا لتنهشي

بكفيك في أعماق ورك مفتل

أتيت بمرسيدس فما عدت دارياً

بحال جمالي في بلاجات جُلجل!

و«جنزاً» أحب البنطلون لأنني

أحرك ساقي فيه دون تململ

.. لم يصفق المجنون لما استمع إليه.. فاغتاظ امرؤ القيس وفرك له أذنيه.. ثم انطلق مع صديقيه.. حيث امتطوا جميعاً صهوة المرسيدس البنز.. وهم يترنحون مما أصابهم من العز.. أما المجنون فقد اهتدى للطريق.. بعد أن ظل تائهاً بلا رفيق.. لكنه لاحظ أن الزحام شديد.. بسبب تنافس الناس على لقاء عيد.. هو عيد الفطر السعيد.. وهذا ما يدفعهم لشراء كل جديد.. واكتشف المجنون أن أبناء الصين.. وكلهم من البوذيين.. أو من أتباع كونفوشيوس.. هم الذين يعملون بجهد ملموس.. لكي يصنعوا فوانيس رمضان.. ويقدموها بأجمل الأشكال والألوان.. لأطفال «لا إله إلا الله».. فتنهد المجنون وقال: آه ثم آه.

لم يشتر مجنون العرب.. إلا كيلو عنب.. بعد أن تأكد أن من زرعوه من الفلاحين العرب.. لكنه تعجب كل العجب.. حين تنبه أن المحلات العربية.. ليس فيها غير البضائع الأجنبية.. فتأكد له أن العرب.. لا يصنعون لأطفالهم حتى اللعب!

obeikandl.com

٣

امرؤ القيس بين الأمل واليأس
اليوم خمر ... وغداً أمر !!

وجد المجنون نفسه مرة ثانية.. تائهاً فوق أحد الجبال النائية.. وحين أحس بالتعب.. تكدر مزاجه واضطرب.. فقرر الجلوس قليلاً فوق قاعدة صخرية.. ليتلهى برؤية ما حوله من النباتات البرية.. لكنه اكتشف شبحاً جالساً فوق القاعدة.. وهو يردد عبارة واحدة.. اليوم خمر.. وغداً أمر.. ولاحظ المجنون أن حالة الشبح لا تسر.. فاقترب منه ليغوص في أعماق السر..

★ السلام عليكم أيها الشيخ الهمام.

- أي سلام؟.. لقد فقدت شهيتي للكلام.. بعد أن جرى لي ما جرى.. ولم أعد قادراً حتى على أن أرى.. ولن أقول لك أكثر من أن اليوم خمر.. وغداً أمر!

★ هذا يعني أنك امرؤ القيس؟!

- نعم.. وقد تلاقينا منذ فترة قريبة قبل غروب الشمس.

★ آه.. لقد تذكرت الآن..وكان معك خليلان.. وكانت معك سيارة مرسيدس - بنز.. كما أنك كنت ترتدي بنطلون جينز!

- إنك تدفعني الآن لأن أتذكر.. ما يجعلني أبكي وأتحسر.

★ وماذا جرى لك يا ترى؟

- لقد كنت خارج السيارة.. عندما انقضت عليها طيارة.. وألقت فوقها شيئاً يشبه المنجنيق..فشب فيها حريق، وبعدها

تحول كل شيء إلى كتل من النيران.. ورأيت خليليّ أمام عيني وهما يحترقان.

★ وماذا أنت فاعل الآن؟

– سأسكر اليوم ثم أذهب إلى قيصر الروم.. لأروي له عما ابتليت بـه مـن الهمـوم.. وأطلب منه مد يد المساعدة.. وأن يقدم لي ما أرجوه من مساندة.

.. وأمعن امرؤ القيس في الشراب.. فتركه المجنون كأنه فص وملح وذاب..وبعد أن اهتدى إلى الطريق.. دخل بيته العتيق.. وهو يفكر مرتاعاً في حكايـة المنجنيـق.. وفجـأة سمع جرس الباب.. فقام ليجد الربع والأصحاب.. يطلبـون منـه أن يـذهب معهـم إلى شمال قطر.. في رحلة يستمتعون فيها بالسهر.. على إيقاع نور القمر.. فركـب المجنـون معهم في الرنج روفر المتين.. حيث انطلقـوا إلى عشـيرج متحمسـين.. وبعـد أن نصـبوا الخيام.. وجدوا البرد ينفذ إلى العظام.. فأشعلوا النار ليتدفأوا ويجهزوا الطعام.. لكـنهم بدلاً من أن يذوقوه ويأكلوه.. نسوه على النار فأحرقوه.. فطالبهم المجنون بأن يُحكمـوا العقل.. وأن يعودوا لبيوتهم فهذا خير حل.. وكتب المجنـون في لحظـة غضـب.. هـذا الذي قد كتب:

جـاء ربعـي وتلاقـوا عنـد بـابي

وتجهزنـــا.. بأكـــل .. وشـــراب

خيشـة العـيش حملنـا ودجاجـاً

ويغـوري الشـاي جئنـا والكبـاب

إنهـــا الكشـــتة في ليـــل شـــتاء

مقمر.. رغـم ألاعيـب السـحاب

حيث راح الرنج يطـوي أرضـنا

بعد تحفيص وخـوض في التـراب

وأنـــا في الـــرنج معفـــوس لأني

آكـــل الرمـــان مبلـــول الثيـــاب

حين خيمنا شمالاً في عشيرج

لعب البرد بأعصاب الشباب

فارتدى جاسم زوجاً من دلاغ

أين دفء البيت من هذا العذاب؟!

.. أوقدوا النار لنلقى بعض دفء

صاح يعقوب بحزن واكتئاب

فتسابقنا جلوساً قرب نار

وتركنا النار تعلو كالهضاب

فإذا اللحم سراب من رماد

والدجاج الحلو أمسى كالهباب

حظنا مال فجدنا بدموع

وتعشينا بأطباق السراب

قلت للربع: أعيدوني وعودوا

لا تمروا أبداً يوماً ببابي!

دخل المجنون بيته وهو يغلي من الغضب..وفتح التليفزيون دون سبب.. فوجد على الشاشة أناساً يتكلمون.. منهم من يتناقشون.. ومنهم من يصرخون.. ومنهم من يتهاوشون.. وهنا تسمر المجنون أمام الشاشة الصغيرة.. وهو يلتهم قطعة كبيرة من فطيرة.. وأخذ يستمع لما يقال.. عساه أن يعرف ما سينتهي إليه الجدال..

★ أنا أعتقد أن امرأ القيس قد أخطأ.. وأنه بدلاً من أن يتقدم قد أبطأ.. ولو أنه ظل يركب الجمال.. لكان حاله اليوم أحسن حال.. لكنه – بكل أسف – اغتر بالمرسيدس – البنز.. وفرح بارتداء الجينز.

– اسمح لي أن أفند هذا الذي يقال..

★ سأعطيك المجال..

- إن المرسيدس - البنز.. ضرورة عصرية..لكن عقولنا نحن هي التي ليست عصرية!

★ هل تقصد أننا ما زلنا في عصر الجاهلية؟

- أنا لا أقصد هذا يا جاهل.. أنا أقصد أن على كل منا أن يكون الفاعل.. ألا تتذكر أن امرأ القيس قد حاول أن يستنجد بالطامعين من الغرباء.. لكي يساعدوه في القتال ضد الأشقاء.. فماذا كانت النتيجة التي نراها؟.. وهل يستطيع أحد أن يغيرها أو يتلافاها؟.. الطامعون الآن في كل مكان موجودون.. وإذا قالوا لامرئ القيس كن قرداً أو فأراً.. فهذا ما سيكون!

٤

الصحراء مقبرة ... والرحلة إلى أنقرة ... ليست مسخرة

لم يعد امرؤ القيس يتحمل حر الصحراء.. كما أدرك أن السيف وحده لا يكفي لقتال الأعداء.. فأخذ يتخبط في متاهة الفكر.. لعله يتوصل إلى طريق النصر.. وهكذا شوهد يدخل إلى إحدى الشركات.. بعد أن علم أنها متخصصة في الإلكترونيات.. وهي «شركة البسوس.. لجلب التكنولوجيا للمنحوس».

بمجرد دخول امرئ القيس إلى الشركة.. رمقته إحدى العاملات بنظرة ساحرة.. وأوصلته إلى مكتب الإدارة الفاخرة.. حيث استقبله المدير بكل حفاوة.. وطلب له كابوتشينو وقطعة بقلاوة.. ثم سأله عما يريد.. لكي يقدم له المفيد.. ودخل الاثنان في مناقشات.. حول الحروب السابقة.. والحروب اللاحقة.. والفرق بين حرب الهكسوس.. وحرب البسوس.. وأشار المدير الأشقر إلى بعض الصور.. فأمعن فيها امرؤ القيس النظر.

انظر جيداً يا مستر امرؤ القيس.. هذه الصورة لمكيف هواء.. يجعلك تتحمل حر الصحراء.. ويمكننا أن نثبته لك على سنام الجمل أو ظهر الحصان.. حيث تنطلق به بكل راحة وأمان.. والمكيف يعمل بالطاقة الشمسية.. وبإمكانه الاتصال بالأقمار الصناعية.. أما السيوف.. فلدينا منها ما هو غير مألوف.. فهناك نوع لا تمسكه الأيدي البشرية.. لأنه يتحرك بصورة تلقائية.. لقتل الأعداء في أقل من

ثانية.. وهناك أيضاً أنواع.. تطير وحدها لاقتحام الحصون والقلاع.

انصرف امرؤ القيس دون أن يأكل البقلاوة.. وودعه المدير بكلمات مدونة بالحلاوة.. واستقر رأي امرئ القيس.. على الذهاب إلى القيصر قبل طلوع الشمس.. وهكذا انطلق إلى الغرب.. دون أن يتناول أي شرب..لكنه اصطحب معه بعض الأهل.. لكي يؤنسوه في وحشة الليل.. كما اصطحب معه سلمى الجميلة.. لأنها تزيح عن صدره أحزانه الثقيلة.. وأسكنهم امرؤ القيس في فندق رومي فاخر.. وتركهم لبعض الوقت لكي يشتري لنفسه سجائر.. وفجأة اهتزت الأرض.. بالطول والعرض.. فعاد امرؤ القيس إلى الفندق الرومي في الحال.. ليجد أن الأهل خارجه في أسوأ حال.. وبكت سلمى وهي تحكي له ما كان.. فاغتاظ وقال وهو يجز على الأسنان:

ألا عم مساء أيها الفندق الغالي

فقد بات فيك الأهل في يوم زلزال

ولم يهربوا إلا وقد علموا بما

يُحاك لهم من دفع فيزا وأموال

لقاء شراب ليس من بئر زمزم

ولحم عصي المضغ مر وقتال

وحبة مشروم وأفخاذ ضفدع

ودهن لخنزير مغطى بغربال

وشاشة تلفاز تبث فواحشاً

وفيلماً يبث الرعب في قلب أطفال

لئن كنت عربيداً فإني أرى هنا

أناساً أقاموا للزنا ألف تمثال

وقد فقدت سلمى أحب عباءة

إليها وعادت تشتكي فقد خلخال

وساخ حصاني في الرمـال كأنـه

رماد من البركان في الزمن الحـالي

.. رفض امرؤ القيس أن يعود من حيث جـاء.. لكنـه طلـب مـن الأهـل أن يعـودوا وحدهم إلى الصحراء.. وطالب سلمى بألا تجلس صباحاً في الشمس.. خصوصـاً بعـد وضع ساقها اليمنى في الجبس.

بعد دقائق معـدودات.. لمـح المجنـون رجـلاً غريبـاً في الظلمـات.. وعـلى الفـور عرفـه المجنون.. فانتابته الظنون.. لأن الرجـل هـو مـدير «شـركة البسـوس.. لجلـب التكنولوجيـا للمنحوس».. أسرع المجنون في خطاه.. ليبحـث عـن امرئ القيس في كـل اتجـاه.. وحـين التقاه.. وجده يطلق الآه تلو الآه.

سأل المجنون امرأ القيس عما ينويه.. ولمـاذا يمشـي إلى الغـرب وسـط الظلمـات والتيه.. فأخبره امرؤ القيس بما رأى أنه الصواب.. خصوصاً أنه قد كـف عـن الشـراب وتاب.

★ أريد الذهاب إلى قيصر الروم.. لعله يزيح عني بعـض الهمـوم.. ويسـاعدني في أخـذ الثأر.. ممن قتلوا أبي بالحيلة والغدر.. فرغم أن أبـي ضـيعني صـغيراً.. إلا أنـه حملنـي دمـه كبيراً.. وأنت تعرف أني قد سبق أن قلت: غداً أمر..ولهذا لابد من النصر عند أخذ الثأر.

– كثيرون يقولون وهم يؤكدون.. إني رجل مجنون.. ولكني أرجو أن تسمع منـي.. وألا تخيب ظني.

★ ماذا تريد أن تقول؟

– أرجوك ألا تذهب لقيصر الروم.. ففي ذهابك إليه ما يزيد الهموم.. يـا سـيدي يـا امرأ القيس.. إني متأكد من طلوع الشمس.. وأنك ستنتصـر.. بشـرط أن تنتظـر.. إلى أن تتجهز وحدك.. وساعتها لن يقوى الأعداء أن يقفوا ضدك.. أما الآن فإن الصحراء تبدو مقبرة.. كما أن الرحلة إلى أنقرة.. ليست أبداً «مسخرة»!

obeikandl.com

٥

العفريت .. في يده كبريت .. وامرؤ القيس .. يشرب الكأس

تحير امرؤ القيس حيرة شديدة.. فإما أن يذهب إلى بلاد اليمن السعيدة.. لكي يعود ومعه رجال.. يساعدونه في مواجهة خصومه أثناء القتال.. وإما أن يتوجه غرباً إلى القيصر.. لكي يطلب إمداده بحشد من العسكر.. وظل امرؤ القيس متحيراً بعض الوقت.. إلى أن خلع عباءة التردد والصمت.. فقد أيقن أن النظام العربي ضعيف.. وأن الزمان لا يقابل الضعفاء بوجه لطيف.. وهكذا حسم الأمر.. استعداداً ليوم الثأر.. وقرر أن يدرأ عنه الهموم.. بالذهاب إلى قيصر الروم.

تخوف المجنون مما قد يواجهه امرؤ القيس من مصير.. وناشده بألا يسير.. وقال لامرئ القيس.. أخشى أن تشرب الكأس.. ولابد أن أذكرك بأنك قد قلت بالأمس:

تطاول الليل علينا دمون

دمون.. إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون

لم يهتم امرؤ القيس بقول المجنون.. وأكد أن لقاء القيصر سهل ومضمون.. وأن الطريق إليه مأمون.. وهنا قرر المجنون أن يذهب معه.. لعله يستطيع أن ينفعه.. أو أن يسليه في الطريق.. ويخفف عنه بعض الضيق.

على امتداد الطريق شاهد الإثنان.. ما تشيب له الولدان.. فقد شاهدا ظلاً مخيفاً لعفريت.. يمسك بيده اليمنى علبة كبريت.. ويطلق باليسرى سرباً من البوم.. وحوله علب ملآنة بالسموم.. كما شاهدا أشلاء فارس قتيل.. بقرب حصان لا يكف عن الصهيل.. وفي السماء كان الرعد.. يقرقع ويشتد.. ويسأل عمن معه وعمن ضد.. تلفت امرؤ القيس إلى المجنون.. وقال: أنا لا أحب الذين يبكون.. فأجابه المجنون بأنه لا يبكي.. لكن امرأ القيس قال: بل إنك من القلب تبكي.. وهذا ما يضاعف حيرتي وشكي.. وتنحنح الشاعر الفارس الحزين.. ليقول بحزن دفين:

أنا.. أمرؤ القيس الذي عدت كي أرى
ينابيع إلهامي.. تباع وتشترى
أمر على الأطلال في ساحة خلت
ولم يبق فيها غير ياس تسمرا
أخوض الليالي موجة بعد موجة
ولست أرى فجراً يطل مبشرا
وفي الأفق رعد قد تمدد وافترى
ليخفي بسقف الليل بدراً منورا
أرى في المدى أشلاء من كان فارساً
وظلاً لعفريت أتى متجبرا
وكنت أرى فيما مضى شمسَ يعربٍ
وواحات نخل تجعل التمر سكرا
وكنت أرى سلمى وأعشق حسنها
وأشهد.. لو صخر رآه.. لأثمرا
فمالي أرى الدنيا تبدد صفوها
ومستقبلاً وعراً وجلاً محيرا

بغيـــر يقـــين أهجـــر الآن مـــوطني

أقول لنفسي: قـد أعـود مظفـرا

بكى صاحبي لما رأى الغرب وجهتي

وأيقـــن أني قـــد أذل لقيصـــرا

.. بمجرد دخوله من بوابة القصر المرمرية.. أجريت لامرئ القيس مراسم استقبال رسمية.. ودخل على القيصر.. ورآه جالساً في هيئة غضنفر.. أما المجنون فقد وضع على رأسه طاقية الإخفاء.. وتذكر على الفور قول أحد الشعراء الحكماء:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة

فلا تظنن أن الليث يبتسم

حين تهلل وجه امرئ القيس.. كان قد شرب الكأس.. فقد وعده القيصر خيراً.. ما دام يريد أن يأخذ ثأراً.. وخرج الشاعر بعد اللقاء.. ليؤكد للصحفيين أنه قد عاد إلى حالة الصفاء.. بعد أن أحس أن النصر سيأتيه دون إبطاء.. فقد وعده القيصر.. بحشد كبير من العسكر.. وفي طريق العودة الطويل.. جاء مبعوث القيصر الجليل.. وسلم لامرئ القيس هدية.. بالقرب من مدينة أنقرة الرومية.. وكانت الهدية بدلة مزركشة.. تغمر من يلبسها بروح الفرح والفرفشة.. وفي الحال ارتدى امرؤ القيس البدلة..لكن فرحته لم تدم أكثر من ليلة.. وقد أحس المجنون أنها بدلة ملغومة.. وبالفعل فإنها كانت مسمومة.. وهنا بكى المجنون أشد البكاء.. بينما سقط امرؤ القيس فوق رمل الصحراء.. ورأى قبراً لامرأة من بنات ملك الروم.. فأدرك أن سيوافيه الأجل المحتوم.. قبل أن يأخذ الثأر.. وقبل أن يتحقق له ما كان يرجوه من نصر.. وهكذا اندفع قائلاً لمن تسكن في القبر:

أجارتنا إن المزار قريب

وإني مقيم ما أقـام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ها هنا

وكل غريب للغريب نسيب

obeikandl.com

٦

عمر بن أبي ربيعة .. يسهر في الليدو وكازينو بديعة !

لأن الحمار حمار.. فإنه لا يقوم بالاحتجاج أو الاستنكار.. عندما يحمل من الأثقال.. ما قد تنوء به الجبال.. ولكن في بعض الأحيان. قد يتمرد الحمار على الإنسان.. ويعلن العصيان.. رافضاً أن يمشي رغم كل الضرب والإذلال والهوان.. ولهذا يقول المصريون.. عن الشخص الذي يضربه الآخرون.. «علقة ساخنة».. إنه «.. أخذ علقة.. ما خدهاش حمار في مطلع..».

ويبدو أن شركات الاتصالات.. على امتداد كل القارات.. قد تعلمت كالحمار أن تطيع أصحاب «الموبيلات».. وأن تتمرد في بعض الأحيان.. حين يتزاحم كل إنسان.. مع غيره من الناس.. من مختلف الألوان والأجناس..لكي يرسل الجميع «ميسيجات».. كلها تردد عبارة واحدة Happy New Year.. وعلى الرغم من أن السنة الميلادية تخص المسيحيين.. إلا أنهم يجدون الآخرين.. من بوذيين ومن مسلمين.. يشاركونهم في ترديد: «هابي نيو يير..»!

كان المجنون يريد السفر إلى باريس.. لقضاء ليلتي الأربعاء والخميس.. في زيارة متحف اللوفر صباحاً.. والسهر في الليدو أثناء الليل.. وقد هرب من مكانه بالفعل.. وسافر دون أن يدفع شيئاً بالريال أو اليورو أو الدولار.. والبركة طبعاً في «بساط الريح» الجبار.. وأثناء طيران المجنون في الأجواء.. وجد بالقرب منه طائرة

تشق عباب الفضاء..وتلصص المجنون على الطائرة.. وهي إلى وجهتها الأوروبية سائرة..! فوجد فيها أحد الرجال.. يقوم بكل فرح واختيال.. بتغيير ثيابه العربية.. وارتداء ملابس أوروبية.. فاقترب المجنون بدافع الفضول.. من الطائرة ليعرف ماذا يجول.. في بال الرجل الذي «كشح» وتعطر.. ومشى داخل الطائرة يتبختر.. وهكذا أرهف المجنون السمع بكلتا أذنيه. بينما كان الرجل يبوح لنفسه بما لديه:

«أشلح» الليلة سروالي ونعلي
مدخلاً في بنطلون الغرب رجلي
تاركاً «خترة» رأسي وعقالي
جنب «بشتي» ناسياً عادات أهلي
واضعاً فوق عيوني «كشمة»
«كشخة» من صنع أوروبا لمثلي
غارساً في «عروة الكوت» ورداً
ممسكاً «برنيطة» الرأس كظلي
ومن الساق «دلاغ» يتدلى
فوق «جوتي» جلد كنجارو.. وأصلي
إنها راحة بال.. بعد صبر
إنها رحلة لهو للتسلي
قلت للزوجة: «يا أم عيالي
إنين من أجل شغلي سأولي
فاسمحي لي بغياب عنك شهراً
فأنا – والله – معفوس بشغلي»
قالت الزوجة: «إن الشهر وايد
حفظ الله أبا الجهال.. بعلي..»
يا «هيد برك» وياكل الملاهي
لك حبي.. أنت شغلي.. طول ليلي

آه ممـــا ســـألاقيه..وويـــلي .

حين تدري زوجتي.. أيـن محـلي!

.. ألقى المجنون على الرجل نظرة حائرة.. امتزجت فيها الشفقة بـالروح السـاخرة. ثم ابتعد عن الطائرة.. حيث هبط ببساط الريح في شارع «بيجال».. ورأى فيه زحاماً مـن نساء ورجال.. وتصور المجنون أن النساء يعشن في ضائقة ماليـة.. لأنهـن رغـم بـرودة الشتاء الثلجية.. يلبسن تنانير قصيرة.. تكشف – يا ولداه – عما فوق سيقانهن المثيرة!

في شـارع بيجـال رأى المجنـون رجلـين يتمشـيان.. وهمـا يتحـاوران.. وأحيانـاً يتهامسان..وأحس المجنون أنهما من بني العروبة..التي أصبحت أشبه بالسفينة المثقوبة..

– لماذا تأخر عمر عن الموعد؟

★ يبدو أن النساء هنا لا يشعلن غرامه.. وهكذا فإنه فقد اهتمامه.

– لكنه عاشق للنساء.

★ هذا صحيح.. وكلنا نعشق النساء.. لكن النساء هنا عجيبات.. فكلهن هزيلات.. ممصوصات.. نحيفات.. وعمر لا يحب إلا البدينات.. المربربات!.

.. هنا اندفع المجنون إلى الرجلين.. وقال: هل تسمحان لي بكلمة أو كلمتين.. أريـد أن أعرف أولاً من هو عمر؟.. ربما أستطيع البحث عنه بعد اقتفاء الأثر.. وثانياً.. لمـاذا يكره عمر الرشاقة.. بكل ما فيها من حيوية وطلاقة؟

قال أحد الرجلين وهو ينظر إلى امرأة نظرة جائعة.. لأنها تبدو امرأة حلوة ورائعـة:.. إننا نبحث عن صديقنا الشاعر عمر بن أبي ربيعة.. لقد سـهرنا معـه مـن قبـل في كـازينو بديعة.. وكنا قد تواعدنا معه على سهرة الليلة.. في أبهى حفلة.. يقـدمها ملهـى «الليـدو» الموجود في «الشانزلزيه».. فإذا كان الأمر يثير اهتمامك يا سـعادة «البيـه».. فعليـك أن تبقى معنا.. حتى يأتي عمر فنصحبه ويصحبنا.

اندهش المجنون عمر بن أبي ربيعة.. يسهر في الليدو وكازينو بديعة!

.. لا تتعجل. سـ وي لك الحكاية.. من بـدئها لحـد النهايـة.. ولكـن عنـدما يـأتي عمر.. ويأتي معه القمر!

obeikandl.com

٧

بائعات الهوى في بيجال ... رقص على الشوك بغير جدال !

كالأمواج التي تتحرك وتندفع.. وإن كانت تنخفض أو ترتفع.. ظلت حشود من النساء والرجال.. تتحرك في شارع بيجال.. وتنبه المجنون وهو واقف مع صديقي عمر.. أن هناك نساء يغمزن بعيونهن دون حياء أو خفر.. وأنهن يتحركن ببطء قرب أعمدة الإنارة.. ويقمن بحركات، كلها إغراء وإثارة.. وقال أحد صديقي عمر بن أبي ربيعة.. وهو يضحك ضحكة خليعة.. آه من بائعات الهوى في بيجال.. إنهن يرقصن على الشوك بغير جدال.. وفجأة رن الموبيل الذي يحمله عدة رنات موسيقية..فاندفع ليرد باللغة العربية.. رغم أن الأجواء كلها فرنسية:

★ نحن الآن في شارع بيجال.. أمام المولان روج.. ومعنا شخص يريد التعرف عليك.

- أنا سبقتكما.. ودخلت الليدو في الشنازليزيه.. وقد حجزت لكما تذكرتين.. فلا تتأخرا.. لأن العرض سيبدأ بعد قليل..وستجدان فيه كل جميل.

... بعد المكالمة أراد المجنون أن ينصرف في اللحظة والتو.. لكنه اطمأن بعد أن عرف أنه مدعو.. وانصرف الثلاثة في الحال.. بعيداً عن شارع بيجال.. وحول المائدة.. التي اتخذ منها عمر بن أبي ربيعة قاعدة.. يراقب من خلالها حركات

النساء.. ويتأمل جمال الأضواء.. جلس الثلاثة معه يثرثرون.. بينما قال له المجنون؛

★ أنا سعيد حقاً بلقائك أيها الشاعر الساحر..

- شكراً لك. ولكن ماذا تعرف حقاً عني؟

★ اسمح لي أولاً أن أقول لك إنك أكثر شباباً مما كنت أتخيل.

- السبب يرجع إلى عشقي للحياة وحبي للنساء الجميلات.

★ أنت إذن ينطبق عليك المثل الفرنسي «شرشيه لافام».. فتش عن المرأة.

- لا تخلط الأمور.. فأنا شاعر أقدم من أي شاعر فرنسي.. بل أقدم من كل شاعر أوروبي.

★ أنا أعرف هذا طبعاً.. فأنت قد ولدت في المدينة سنة ٢٣ هجرية في نفس اليوم الذي قتل فيه عمر بن الخطاب.

- هذا صحيح.. ولهذا السبب يهاجمني المتزمتون.. ويقولون.. إن عمر الشاعر الفاسد.. قد ولد يوم مقتل عمر الخليفة الراشد.. على العموم أنا لا أهتم بالنقاد.. خصوصاً الذين تمتلىء صدورهم بالأحقاد.. والآن دعنا من هؤلاء.. ولنتحدث عن النسوان.. الحقيقة أني قد تأثرت.. بل إني بكيت.. عندما اقتربت مني إحدى بائعات الهوى في بيجال.. وأخذت تشرح لي ما تعانيه من أهوال.. والطريف أنها سمتني أُمر بن ربيئة.. لأنها لا تستطيع نطق حرف العين.

.. تدخل أحد صديقي عمر..وطلب منه أن يخبره بما قالته فتاة بيجال.. فانطلق عمر بن أبي ربيعة في الحال.. وتمايل قليلاً.. ثم قال:

أُمَـرَ بـن ربيئـة ... وردة العشق المضيئة

إنني بنت الفرنجة ... كنت في الماضي بريئة

إنما المهنة شاءت ... أن أرى دنيا رديئة

مع ناس قد أحبوا ... نكت الخمر البذيئة

وشباب قد أضاعوا ... عمرهم بين الخطيئة

فلتجرب أنت حزني ... أُمَـرَ بـن ربيئـة!

... اغتاظ أحد صديقي عمر منه.. وطالبه بألا يكدر الجو.. بما يغمر القلب بالحزن.. وقال له: يا عمر.. انظر إلى هذه الفتاة التي لا تتكرر.. إن جسدها ليس من طين وماء.. بل من المرمر.. وأنا كلمتها منذ لحظات.. وقد وعدتني بأن تسهر معي أحلى السهرات.. وأنا شخصياً كتبت عن رشاقتها القريدة.. ما يبدو لي أنه قصيدة:

جسد.. مرمر ... وبه أسحر
يثنى في ... أبهى مظهر
وصديقة أحلامي تبهر
زهرة فل ... لا تتكرر
عيناها من ... خمر الكوثر
شفتاها يا ... قوت أحمر
فمها يحوي ... أحلى سكر
فإذا اقتربت ... يحلو المنظر
وإذا غابت ... فرحي يقهر
فمتى تدنو ... ومتى نسهر؟
جسد.. مرمر ... وبه أسحر
معه يأتي ... فرحي الأكبر

... بعد لحظات.. مالت إحدى فتيات الليدو على عمر بن أبي ربيعة.. ولاحظ المجنون أنها تنطق حرف العين نطقاً صحيحاً.. فأدرك أنها قد اختلطت كثيراً بالعرب اختلاطاً واضحاً وصريحاً.. وأخذت فتاة الليدو تداعب عمر.. وتعاتبه في نفس الوقت.. لأنه أكد لها أن كازينو بديعة.. أجمل من الليدو.. وسمع المجنون منها ما تقول.. بينما كان يجلس في اندهاش وذهول:

كيف.. مسيو.. عمر بن ربيعة

كيف تشتاق لكازينو بديعة؟

إن في الليـدو نسـاء لا تجـارى

هـُن في الليـل حمامـات وديعـة

حين يرقصن يفيض الجو سحراً

بـين أمـواجٍ لموسـيقى سـريعة

فإذا كنت تحب الرقص فاشربْ

واندمج كي يحضن القلبُ ربيعه!

obeikandl.com

٨

مسيو عمر.. يستعيد الزمان الذي عبر.. وبعينيه مفاتيح السهر!

لم يسمع أحد عن ضحكة باللغة العربية أو ضحكة بالإنجليزية أو الصينية أو اليابانية.. الضحكة صوت. ينطلق في الهواء وقد يتجدد.. أو يتبدد.. ولذا يستطيع كل الناس.. رغم اختلاف اللغات والأجناس.. أن يفهموا الضحكة ومعناها.. وأن يدركوا مغزاها وفحواها.

هكذا راح مسيو عمر بن أبي ربيعة يتفلسف.. بعد أن أطلق ضحكة حلوة.. غمرت قلوب سامعيه بالنشوة.. وقد سرت عدوى النشوة إلى قلوب كل الجالسين في الليدو من فرنسيين ويابانيين.. ومن سود وبيض.. ومسيحيين وبوذيين.. وإلى غيرهم من الآخرين.

قال عمر للمجنون: أتعرف أن كل نساء الليدو يعرفنني.. وبالحب والخير يذكرنني!.. تماماً كما كانت نساء مكة يعرفنني ويذكرنني.. هذا طبعاً أيام زمان.. عندما كانت كل امرأة منهن تراني أتبختر بالحصان.. أما الآن.. فإن نساء الليدو يعرفنني من خلال موقعي على الإنترنت!.. وبين الحين والحين أتلقى منهن رسائل بـ«الإيميل»!!

★ وهل يعرفنك الآن شخصياً؟.. وكيف؟!

- أيها المجنون الغبي.. إن موقعي على الإنترنت مزين بالصور..وكلها تروي حكاياتي مع السهر.. عبر الزمان الذي عبر.. وحتى هذا الزمان الحاضر.. وإذا فتحت موقعي ستجد صوراً لي

مع هند وفاطمة ونعم.. كما ستجد صوراً أخرى لي مع سوزي وجاكي وجين!

★ أنا أفهم أن هند تعرف قصائدك الغزلية.. لأنها مكتوبة بلغتنا العربية.. ولكن كيف تفهم سوزي هذه القصائد وهي لا تعرف غير لغتها الفرنسية؟

- ألم تسمع أبداً بالمستشرقين.. والمترجمين!.. قبل أن تجيئوا أنتم استقبلتني ثلاث فتيات جميلات.. بأجمل الورود مع ألطف البسمات.. وسأروي لك أيها المجنون.. ما جرى عند دخولي حتى لا تساورك الظنون.. والآن اسمع يا مجنون:

حين مس الأرض غيث وانهمر

رحت لليدو بشوق قد كفر

عرفتني نسوة الليدو اللواتي

ليس فيهن حياء أو خفر

قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟

قالت الوسطى: نعم.. هذا عمر

قالت الصغرى.. وقد تيمتها:

قد عرفناه.. وهل يخفى القمر..

إنه ينعش أحلام الصبايا

إنه العاشق في أبهى الصور

إنه كنز من الحب تجلى

وبعينيه مفاتيح السهر

إنه يقطف ورداً من خدود

ويغني لزمان قد عبر

وهو في الحالين حلو ووسيم

ساحر يلقي دعابات السمر

تمايل المجنون من الطرب.. وتمايل معه كثيرون من العرب.. لكن المجنون قال – فجأة – لعمر.. بقدر كبير من الحذر:

★ إن كل قصائدك يا عمي عمر مكتوبة في النساء.. فلماذا لم تمدح أي خليفة من الخلفاء؟

– أولاً.. لا تكرر أبداً عبارة عمي عمر.. قل يا أخي عمر.. فأنا أكثر شباباً منك!.. وثانياً.. لقد سبق أن قلت للخليفة الأموي أنا لا أمدح الرجال، إنما أمدح النساء وذلك بعد أن طلب مني أن أمدحه.. والحقيقة أنني فعلاً أعشق النساء.. وتركت السياسة لبني أمية.. خصوصاً إنني من عائلة ثرية.. ولست محتاجاً إلى المال.. وبالتالي فإني لا أمدح.. وإنما أتغزل في كل وجه مليح، ثم أتركه إلى ما هو منه أملح.. وثالثاً.. إن الحكام يضعون الشعراء في المعتقلات والسجون.. إذا كتبوا عما هم يفعلون أو يرتكبون.. ولهذا فأنا أتقي شرهم وأكتب في الحب، بل أحياناً في المجون.. أليس هذا أفضل يا مجنون؟!

فجأة ترنح عمر.. لا بسبب ما شرب.. وإنما من فرط الطرب.. بعد أن سمع موسيقى التانجو والسامبا والجاز.. فأمسك سيفاً من سيوف الزينة.. وأخذ يتمايل أمام فتاة بدينة.. لأنه لا يحب النحيفات.. وهنا تحرك شاب مفتول العضلات.. يسمونه «بودي جارد» لكي يقبض على مسيو عمر.. لكن إحدى العاملات في الليدو اندفعت بسرعة.. وقالت للبودي جارد.. إن هذا الرجل الجميل.. ليس إرهابياً وليست له أي علاقة بخطف الطائرات.. وإنما يحب أن يخطف قلوب الجميلات.

لم يهتم عمر بهذا البودي جارد.. وواصل الرقص بكل ثقة واعتداد.. ثم أطلق ضحكة حلوة.. غمرت قلوب الجميع بالنشوة.. بينما أمسكت سوزي كتف مسيو عمر.. وأخذت تراقصه دون حياء أو خفر.. فقال عمر للمجنون.. اسمع ما سأقول يا عم مجنون:

يقبل الليل فينسينا النهار

عندما يلقي على الدنيا ستار

هذه سوزي بتانجو تتلوى

هذه جين تحيي BON SOIR

ونبيـــذ مـــن شـــفاه تتغنـــى
أخطـف القبلـة منهـا باقتـدار
وأنـا أرقـص كالسـاحر لمـا
يتمشـــى بـــين أولاد صـــغار
قـدمي تبـدع إيقاعـاً عجيبـاً
بينمـا النسـوة حـولي في انبهـار
كل هذا في ستار الليل يجري
كيف بـالله نـرى نـور النهـار؟!

obeikandl.com

٩

لماذا أطلق عمر بن أبي ربيعة .. ضحكة صاخبة خليعة ؟

بعد الليلة التي قضاها مسيو عمر.. بين الغناء والرقص والسمر.. التفت نحو الفتيات، قائلاً لهن مرسيه.. وخرج من الليدو في الشانزليزيه.. حيث تحرك بكل ثقة واطمئنان.. نحو المكان الذي ربط فيه الحصان.. لكنه لم يعثر له على أي أثر.. فنصحه المجنون أن يبلغ الشرطة بالخبر.. لكن مسيو عمر خاف من الفضيحة.. فرفض النصيحة.. وقال: لابد أن أفراداً من عصابات ألمافيا.. قد جاءوا إلى هنا من إيطاليا.. ليخطفوا حصاني العربي الأصيل.. ويتركوني حائراً بغير دليل.. وربما طالبوني بفدية مستحيلة.. بحكم طباعهم الرذيلة.. وأنا الآن أريد النوم في مخدعي.. خصوصاً بعد أن أنفقت أغلب ما معي!

بدا مسيو عمر كالأسد الجريح.. فأركبه المجنون مع صديقيه في بساط الريح.. وارتفع البساط فوق البحر الأبيض.. وكان الموج أشبه بحصان لم يروض.. فتذكر عمر ما جرى لحصانه.. وجز قليلاً على أسنانه.. وبعد وقت قصير.. قال المجنون بصوت كسير.. إننا نوشك أن نعبر فوق البحر الأحمر.. فعاد لمسيو عمر بعض الاطمئنان.. وقال للمجنون: اهبط بنا قرب بيتي الذي كان.. أيام زمان.. وإن كنت أعرف أنه أصبح طللاً من الأطلال.. اهبط يا مجنون فلم يعد عندي ما يقال.

هبط المجنون ببساط الريح.. وقرر أن يذهب ليستريح.. أما مسيو عمر وصديقاه فقد تمشوا فوق الأرض العربية.. لكنهم لم يسعدوا بمشية هنية.. إذ انطلقت من حولهم الأعاصير.. فتوقفوا قليلاً عن المسير.. حيث استمعوا لحكاية غريبة.. نسي بعدها مسيو عمر ما جرى له من مصيبة.

شاهد عمر وصديقاه أحد الرجال.. وهو يحاول أن يعدل الغترة والعقال.. ويقول لنفسه يضيق وهم.. ماذاجرى لي اليوم؟.. حتى «البنشرجي» لم يعد بي يهتم.. إن «التاير بنشر».. في هذا الجو الأغبر.. وأخذ الرجل البدين الحزين.. يفصح عن حكايته ويبين:

بنشر التاير.. والشارع أغبر

إن حظي اليوم بالوحل تدثر

قطة البيت استطابت أن تنونو

فتيقظت.. وما كنت مخير

قمت من نومي بغيظ يتمادى

وإلى شغلي تأهبت.. مكدر

وتركت البنز.. خليه يولي

ضقت بالبنز فغادرت بجكور

في فريج الربع لاحت بسمة لي

فتمايلت – بزهو – أتعطر

وبدا الجو جميلاً.. وعيوني

تشرب البسمة من وجه منور

فجأة طاح عقالي في اضطراب

ورأيت الجو حولي قد تعكر

فترجلت من الجكور فوراً

وإذا بي أجد التاير بنشر

وإذا باســـتبن بنـــز يتـــراءى

ساخراً مني.. ومن حظ تعثر

رحلت ملهوفاً لبنشرجي فريجي

قال لي: الحين أنا فيه يسكر!

.. تنهد عمر وهو يردد ما يقوله المصريون..

من شاف بلوة غيره.. هانت عليه بلوته.. وضحك وهو يقول: الحصان لا يحتاج إلا لماء وشعير.. أما هذه المركبات التي تسير.. فإنها تحتاج لبنزين.. خصوصاً إذا كان راكبها من الحجم المتين.. كما أنها تحتاج لبنشرجي غير كسول.. يظل يعمل.. دون أن يقول: الحين أنا فيه يسكر.. هل جاء إلى هنا ليعمل أم لكي يسخر!

أطلق عمر ضحكة صاخبة خليعة.. وقال لصديقيه: هل تذكران كازينو بديعة؟.. وقتها كان المصريون قد بدأوا يستوردون السيارات.. من نوع فورد وباكار بالذات.. وهكذا أصبحوا ينظرون إلى الحمار.. نظرة إشفاق أو احتقار.. رغم أنه كان يتحمل منهم الكثير.. عندما ينطلق بهم أثناء المسير.. ولم يكن يطالبهم إلا بالبرسيم.. وقطرات ماء توضع في جردل قديم!

من جديد.. ضحك عمر بن أبي ربيعة.. وقال إنه سمع في كازينو بديعة.. أغنية من أغنيات سيد درويش.. وفيها هجاء للسيارات.. مع إعطاء الحمار كثيراً من الامتيازات.

★ هل تتذكر هذه الأغنية.. يا عمر؟

- نعم.. يا رفيق ليالي السهر..

هذا صوت سيد درويش.. وهو يعدد مزايا الحمار.. وفضله على الناس أيام زمان:

بنزينـــــه شـــــعير ... ريـــاني مـــش شـــل

جنبكـــو يـــا حميـــر ... الأوتـــو ينـــذل

هـــاتوا فـــورد.. ... هـــاتوا باكـــار

هـــا يلاقـــي فـــين ... زيـــك يـــا حمـــار!

.. ويبدو أن الغناء.. قد أزاح عن عمر العناء.. إذ سرعان ما تعالت الضحكات.. وما لبثت أن تحولت إلى قهقهات.. خصوصاً بعد أن رفع عمر إصبعه.. وأشار قائلاً لمن معه:

هايلاقوا فين.. زيك يا حمار!

obeikandl.com

١٠

«ماكو، غير هولاكو...
وعلى النائمين إهلاكه!

حمل المجنون وردة واصطحب معه قصيدة، أثناء انطلاقه ليلاً للعمل في الجريدة، وعند الباب الذي يُفتح من غير بواب، كانت له وقفة مع الأحباب، حيث تسلم رسالة، يبدو أنها مكتوبة في عجالة، كان عنوان الرسالة «إلى العاقل الوحيد».. فأحس المجنون أنه كائن فريد، بعد أن زرع العنوان، في قلبه واحة الراحة والأمان، وجعله يتأكد أن زملاءه الآخرين، كلهم من المجانين، فخاف على نفسه من جنونهم، ومن شظايا ظنونهم، ولهذا قرر الابتعاد عن الجريدة، حيث مشى على يديه مسافة بعيدة، واتجه متحمساً إلى الكورنيش، ليقرأ من جديد تلك الرسالة بكل ما تحويه من فرفشة وتلطيش!

على الكورنيش تذكر المجنون ما كان منذ سنوات، عندما كانت الفئران تملأ الطرقات، وتعض السائرين وتعاكس السائرات، وتذكر – وقتها – رجال البلدية، وهم ينطلقون بكل همة وحيوية، لوضع السموم في الزوايا والمنعطفات، وحبك الدسائس والمؤامرات، لصد هجمات الفئران، التي كان القط يخشاها والإنسان، ووقتها استمع المجنون لفأر حكيم، يعلن لبني قومه النبأ الأليم، ويتنبأ بالكارثة في قصيدة شعر، يخاطب فيها كل فأرة وفأر:

ضـاق صـدري برجـال البلديـة
يقتلـون الفـار منـا دون ديـة
لـيس يكفـيهم بأنـا في شـقاء
بينمـا النـاس حيـاة شـاعرية
كم شربنا من مجاري الصرف دهراً
وتجرعنا مـن البـؤس البقيـة
حيـث نحيـا في خـلاء أو بيـوت
دون نـاس أو جحـور لولبيـة
نأكـل «الكشـرة» حتـى نتعشـى
ونداري الهم في الدنيا الشقية
ونـرى النـاس مـن التبـذير ألقـوا
بطعام فـائض يغـري الشـهية
ويحهـم.. لم يـذكروا أن جياعـاً
في بلاد العرب ماتوا في العشية
ويحهم.. إذ يزعمون العقل حكـراً
بينمـا الأفعـال أفعـال غبيـة
أيهـا الفئـران.. أنـتم عقـلاء
فاسـتعدوا لتلاقـوا البلديـة!

.. استلقى المجنون على ظهره فوق الحشيش، وهو يتأمل جمال الكـورنيش، وفجـأة سمع صيحة استغاثة عالية، فنظر إلى البحر ليجد أمواجه عالية، وفي قلبهـا رأى رجـلاً لا تبدو منه غير الرقبة، وهو يتشبث بخشبة، ولأن المجنون لا يجيد السـباحة إلا في «شـبر مية».. فقد بادر بإلقاء حبل من الحبال الطويلة القوية، فأمسك به الغريـق، وعـاد لعينيـه

بعدها البريق، لكن المشكلة أن المجنون تعثر واختل، وهو يسحب الحبل، فلم يجد أمامه من حل، سوى أن يغرس قدميه بسرعة بين الصخر، وإذا بشيء غريب يظهر وكأنه سر، يريد أن يخرج من أضلاع الصدر!

وجد المجنون قمقماً من النحاس، فاستبد به الفضول والحماس، وقام بفتح الغطاء المحكم، لكي يرى ما في داخل القمقم، وإذا بدخان يتلوى ويتجسد في هيئة عفريت، فاستجمع المجنون ما تبقى من عقله الشتيت، وقرر أن يهرب ببراعة، أو أن يواجه ما أمامه بشجاعة.

- من أنت أيها العفريت، وماذا تريد.. على وجه التحديد؟

★ أنا «محصور بن مغرور بن المنصور» وأنت أخرجتني من قمقم كنت محصوراً فيه، فاطلب الآن ما تتمنى وأتعهد لك أن ألبيه!

- هل تستطيع تجفيف عمامة هذا الرجل، وإراحته مما هو فيه من بلاء وبلل، وهل تستطيع أن تمنحه شعوراً بالأمل، بعد أن كاد يكون من الهالكين، في قرار البحر المكين؟

.. لم يتكلم العفريت كلاماً كثيراً بلا فائدة، ولكن لم تمر لحظة واحدة، إلا وقد أصبحت العمامة في أحسن حال، وأصبح من كان يشرف على الغرق في أهنأ بال، وهنا التفت العفريت إليه وقال:

- ألست أنت السندباد.. الرجل الذي كان يقيم في بغداد، لكنه كان يحب الرحلة إلى مختلف البلاد؟.. كم مرة أغرقتك موجة قوية، وأنقذتك منها معجزة إلهية؟!

تمتم الرجل بفرح ما بعده فرح:

- الحمد لله، فقد وجدت الآن من يعرفني، ويذكر اسمي الذي كدت من الرعب أن أنساه.

.. لإكمال المروءة والشهامة، ابتسم المجنون للعفريت أجمل ابتسامة، ثم طلب منه أن يعيد السندباد، سالماً غانماً إلى بغداد، فأمسك العفريت كتف المجنون وهو يقول: بشرط أن تأتي معنا، فالاعتذار غير مقبول!

حمل العفريت السندباد على ظهره، وجلس المجنون على كتفي السندباد، وانطلق

الثلاثة في الجو والليل حولهم حالك السواد، حيث شاهدوا من الفضاء شلالات حمراء تتدفق بالدماء، ورأوا بيوتاً تهاجمها ذئاب وتدمرُ ما فيها، على رؤوس أصحابها وساكنيها، فصرخ السندباد: هذه أول مرة أرى فيه قراصنة بريين، بعد أن رأيت من قبل قراصنة بحريين!.. وهنا بكى المجنون، وسقطت دموعه فوق أشجار الزيتون، أما العفريت فقال للسندباد: سأريك في اللحظة والتو، قراصنة آخرين يتباهون بإفساد الجو، والغريب أنهم ينكرون أنهم يفسدون، ويصدقهم بالطبع كل الذين منهم يخافون!.

كاد المجنون يسقط من الفضاء لكن السندباد، أنقذه بفضل رب العباد، فقد كانت تحوم حولهم آلات رهيبة، تحركها وجوه بشرية غريبة، تمطر موتاً يهطل على رؤوس الجائعين وأجساد الأطفال الخائفين، واغتاظ السندباد، عندما رأى النخيل يكسوه الرماد، أما المجنون فقد تذكر من يعرفهم في المدن الشقيقة والصديقة، وهم يسهرون مع برنامج «خير رفيقة لكل دقيقة»، ثم ينامون غافلين أو متغافلين، عن الخطر القادم المبين.. حيث يحلمون «بمن سيربح المليون؟».. لكي يسدد كل منهم ما عليه من ديون.. ويشتري ما يشتهي دون أقساط تتزايد بالفوائد.. وقد تقلب على رأسه كل الموائد.. أو تلقيه في ظلمة السجن.. ليظل فيه يتوجع ويئن.

بعد قليل، تساءل المجنون، بصوت محزون، عن المتسبب في قتل الضحايا، ونشر الخراب في كل الزوايا، وهنا رد عليه السندباد، بصوت لا يخلو من ثقة واعتداد.. المسؤول عن هذا هو هولاكو الذي جاء من أقصى الشرق، حاملاً معه المنجنيق والبرق، وها هو الآن يجيء من أقصى الغرب، ومن دون قلب.. وارتفع صوت السندباد، لكي يسمعه كل العباد.. صحُّوا النوم.. يا قوم..«ماكو» غير هولاكو.. وعلى النائمين التصدي له وإهلاكه!

١١

حكاية الرجل المهموم ... والبلابل التي رباها البوم !

هبط العفريت بالسندباد، في أحد شوارع بغداد، وتركه لكي يرتاح بعد أن طال السهاد، أما المجنون فقد أهداه العفريت نوعاً جديداً من بساط الريح، لكي يطير على هواه دون إذن أو تصريح، وهكذا طار المجنون، يرى ما لا يراه العقلاء الخائفون، حيث رأى أن ميزان العدل قد اختل، بعد أن تزحلق الصبح في بئر الليل، ولم يعد الناس يميزون العسل من الخل، وكل منهم يزعمون أن لديه أفضل حل، لعلاج الجسد المعتل!

«كلهم يكذبون..» هذا ما سمعه المجنون،فنظر من فوق إلى تحت، تجاه مصدر الصوت، فرأى طفلاً عنيداً يمسك بحجر، ويقذفه على شياطين البشر، ورأى أجساداً تحت الأنقاض، وفوق الأنقاض رأى نهر الدم وقد فاض، ورأى – من بعيد – رجالاً يتصافحون ويتعانقون، وبعد قليل رآهم يجلسون ويتنحنحون، وكل منهم يتحدث عن رابطة الأخوة، وعما لديه من قوة، لكنهم يؤكدون أن اللطف أجمل، وأن التحلي بالصبر أفضل، وهنا استمع المجنون، إلى صوت آت من ضباب القرون:

«يسوسون الأمور بغير عقل

وينفذ أمرهم فيقال: ساسة

فأف من الحياة وأف مني

ومن زمن رياسته خساسة»

التفت المجنون بشيء من الخوف، وقال لصاحب الصوت الذي وصف الجميعُ أجمل وصف..

- يا عم.. أو يا جد.. من أنت ومن أين أتيت؟

- أنا في مكاني لا أزور أحداً ولكن قد أزار، منذ أن فرضت على نفسي العزلة داخل أسوار.. أنا «رهين المحبسين».. فقدت نور العينين.. لكني أرى بنور البصيرة.. كل ما يدور في دنياكم الكبيرة.. أرى من صان.. وأرى من خان!.

... سكت رهين المحبسين، وذرف المجنون دمعتين، بعد أن عرف من رجل مهموم، حكاية «البلابل التي رباها البوم»:

«أنبئت أن سليمان الزمان ومن
أصبى الطيور، فناجته وناجاها
أعطى بلابله يوماً - يؤدبها
لحرمة عنده - للبوم يرعاها
واشتاق يوماً من الأيام رؤيتها
فأقبلت وهي أعصى الطير أفواها
أصابها العي حتى لا اقتدار لها
بأن تبث نبي الله شكواها
فنال سيدها من دائها غضب
وود لو أنه بالذبح داواها
فجاءه الهدهد المعهود معتذراً
عنها، يقول لمولاه ومولاها
بلابل الله لم تخرس ولا ولدت
خرساً، ولكن بوم الشؤم رباها»

.. اغتاظ المجنون حين عرف أن البلابل قد أصبحت خرساء، ولم تعد تغمر الأجواء

بالغناء، وهكذا قرر أن يهبط ببساط الريح، وهبط بالفعل قرب بيت جميل فسيح، لكنه سمع بكاء غريب الإيقاع، فدفعه حب الاستطلاع، لأن يهيء أذنيه للاستماع، وهكذا عرف المجنون حكاية، من الحكايات التي ليس لها نهاية.

ها هو المجنون يسترق السمع، وعيناه تفيضان بالدمع، بعد أن أندرى بما قد جرى، حيث اندفعت من داخل البيت الجميل والفسيح.. كلمات تختلط بتنهدات قلب جريح.. أما صاحب القلب الجريح فهو رجل هندي جاء للعمل، وكان في قلبه أمل، وهاهو الآن يحكي لزوجته، عما تسبب في محنته، ففي خارج البيت «دعموه» وداخل البيت ضربوه و«كفخوه» ثم هددوه بأن يطردوه و«يفنشوه».

الحكاية حكاية إنسان أصبح رمزاً لنذل الناس، وهي حكاية لا تهم إلا من لديه إحساس، وقد سجلها المجنون، على لسان الخادم الآسيوي المحزون:

قلت « أطشا » وهززت الرأس هزا
وإلى السوق طويت الأرض قفزا
جالباً كرتون بيض وثيابا
عند «دوبي» و«دايات» وخبزا
مطلقاً ساقي «بالسيكل» أجري
دون«ليت» أكسرا الخاطر غمزا
وإذا بي «طايح» في Big problem
«دعموا» السيكل دعماً مستفزا
والثياب البيض صارت مثل وجهي
وجموع الناس تهريني «طنزا»
ووجدت البيض «معفوساً» بقربي
ومن الساق دماء تتنزى
ثم لما عدت للدار جريحاً
لم يصدق سيدي وانقض لكزا

وتـــولاني بشـــتم بعـــد «كفـــخ»
ثـم جـز الشـعر مـن رأسـي جـزا

قـال لي «يـا سرسـري» مالـك عـيش
هـا هنـا فاذهـب لهـز الـرأس هـزا

فاشهدي يـا زوجتـي سـوء مصـيري
إننـي صـرت لـذل النـاس رمـزا

obeikandl.com

١٢

الحفيد يتحفز... لكفخ الدوبي الذي يتطنز!

قبل أذان المغرب في رمضان.. تهبط على المجنون «ترابيزة» الرحمن.. وهي مائدة يومية.. يقدمها له على سبيل الهدية.. صديقه الشاعر العاقل محمد بن خليفة العطية.. وتضم المائدة فخذة خروف محمرة أو مشوية.. مع كل ما يفتح الباب للشهية.. ويظل المجنون تائهاً بين الأواني والصحون.. حيث يحتفظ لنفسه بما يشاء.. ويوزع باقي الترابيزة على الأصدقاء.. وقبل أن يعود في الليل من العمل.. ينطلق على عجل.. إلى مخبز الرغيف الساخن لشراء الكنافة.. مازجاً بينها وبين مهنة الصحافة.. في مزيج يجمع الحلو بالمر.. ويختلط اليسر فيه بالعسر.

منذ ليلتين وقعت حادثة.. اعتبرها المجنون أكبر كارثة.. فقد سقطت من يده أكياس الكنافة الطرية..وتناثرت أشلاؤها العسلية.. وأصابت كل أرجاء البنطلون.. بينما وقف الناس يتفرجون.. فمنهم من يقهقهون.. ومنهم من يشفقون.. أما المجنون فقد انتابه الذهول.. وأخذ يهذي ويقول:

بنطلوني غاص في صحن الكنافة

فتسربلت بأوراق الصحافة

محرجاً عدت إلى البيت بحزني

حيث أشعلت على الفور لفافة

واستقرت دمعتي في كوب شاي

فارتشفت الشاي، والدمع إضافة

وخلعت البنطلون الحلو حتى

يعطف الدوبي بمسحوق النظافة

إنما الدوبي.. تسلى وتطنز

شكل هذا.. يلبسه راعي ثقافة!

إنت وين الشغل هذا يا رفيج

سوّ من هذا ثريداً بالكنافة!

.. اغترف المجنون من الكلام المر ما اغترف.. فتصبب وجهه عسلاً وانصرف.. حيث قرر جمع شمل العائلة من كل منعطف.. لكي يقدم له الجميع قرارات وتوصيات.. تتعلق بمواجهة الدوبي الذي تطاول بالتطنز والإساءات..للمجنون ثلاثة أبناء.. كلهم من العقلاء.. وللمجنون أيضاً حفيد وحيد.. يلبي لجده المجنون كل ما يريد..

قبل أن يدلي الحفيد بأقواله في جلسة الاستماع.. وقبل أن يشارك في مناقشات الاجتماع – أرسل لجده المجنون.. رسالة على الموبايل المطحون.. وهذا نص الرسالة.. دون إفاضة أو إطالة..: .. إنت في واحد قمر.. في وصف إنت يحتار كل نفر.. أنا ما في يشوف إنت في يموت قهر.. تمت قراءة الرسالة التي خففت عن المجنون بعض ما أصابه.. وأزاحت عن عينيه سحابة الكآبة.. وأخذ الأبناء يفكرون.. بينما راح الحفيد يتحفز.. للانطلاق إلى كفخ الدوبي الذي يتطنز.. وهكذا تنحنح الجميع.. لكي يواجهوا الجرم الفظيع..

– لابد من إعلان المقاطعة الاقتصادية.. وحرمان الدوبي من مائدة الرحمن الرمضانية.

★ بل لابد من إعلان الجهاد.. ضد الدوبي الذي طغى على العباد.. وأصبح مثل قوم عاد.

– لو قاطعنا الدوبي، فمن سيغسل الثياب.؟ لا.. لا فإننا سنواجه أشد اضطراب!

★ علينا أن نتوسل للدوبي، أو نتفاهم مع من عنده من اللوبي!

- سأنسحب من الاجتماع إذا لم تتحقق وحدتنا الفورية..لكي نغسل ثيابنا من البقع النيلية والطينية والرملية.!

★ لا تنسحب.. حتى لا نكتئب.

- كيف نجاهد ونحن ليس لدينا أسلحة؟

★ هذا حق.. وخصوصاً أن لدينا الكثير من الأضرحة!

- الجهاد.. جهاد النفس.

★ هذا كلام كنا نقوله بالأمس!

.. ظل الأبناء يتناقشون.. وأخذ الجيران يتوافدون..واصطدمت الأقوال بالأقوال.. دون أن تنتج عنها أفعال.. وظل الدوبي – من بعيد – يتطنز.. وحاول الحفيد أن يتحفز.. لكن الحاضرين أمسكوا به.. وقال أحدهم: كلنا أصبح مفعولاً به.. والمفعول في هذا الزمان ليس منصوباً بل مجرور.. إلى أن يتمرد أو يثور.. وفجأة اقتحم المكان.. رجل غريب الوجه واليد واللسان.. وصرخ الرجل في وجه الجد المجنون.. لقد فتشنا هذا البنطلون.. ووجدنا به مواد كيماوية.. وأخرى جرثومية!

ازداد جنون المجنون.. وأخذ الجيران يتفرجون وهم يرتعشون.. حيث ارتجف من ارتجف واعترف من اعترف.. أما حفيد المجنون فإنه لم يرتعش أو يتخرع.. وعلا صوته ولعلع: ليس في البنطلون مواد كيماوية.. ولا جرثومية.. كل ما في الأمر أنه يحتاج لنظافة.. تزيح منه آثار الكنافة!

obeikandl.com

١٣

تنظيم المائدة .. يقبل عضوية عناصر وافدة .. ليس لها قاعدة!

تكدر مزاج المجنون وتعكر.. حين أبلغه ابنه العاقل أنه سيتهور.. وأنه سيقوم بعمل فدائي.. لا يستطيع أن يتخيله أعظم روائي.. حيث دعا بعض العناصر الوافدة.. إلى الانضمام لتنظيم المائدة.. خصوصاً بعد أن أدرك أن هذه العناصر ليس لها قاعدة!

خشي المجنون على ابنه العاقل.. من مغبة ما هو فاعل.. فاندفع إلى بيته في شارع الأحباب.. عساه أن يمنع أي عمل له صلة بالإرهاب.. وهكذا تكتم على ما قد يجري.. وفر هارباً من وجه كل صديق.. حتى لا يرصد له أحد أي حركة.. أو يعرف إلى أين تتجه خطواته المرتبكة.. وعلى الرغم من التكتم الشديد.. لمح المجنون رجلاً يراقبه من بعيد.. ربما لكي يتبع خط سيره.. أو لكي يمسك بخيط سره.. فاستدار نحوه المجنون.. وسأله عمن يكون:

– اسمي سعيد باي باي.. أريد أن أجلس لشرب الشاي.. لكني حتى الآن.. لم أجد أي مكان.. يتحقق لي فيه الأمان!

★ إني مندهش من اسمك.. لكني أعترف بأنك في منتهى الجمال والأناقة!

– لا تحسدني على ما يسترني.. فأحوالي كلها تواجه إعاقة بعد إعاقة!

.. أشفق المجنون على سعيد باي باي.. فدعاه لشرب الشاي.. والانضمام لتنظيم المائدة.. لكن سعيد باي باي فر بسرعة غزالة شاردة.. بمجرد أن سمع اسم المائدة!

قبل المغرب بدقائق.. دخل المجنون بيت ابنه العاقل باعتداد الواثق.. فوجد عدة عناصر جديدة.. جاءت من أراض قريبة وبعيدة.. بعد أن تسلموا في قطر ما يقومون به من عمل.. لكنه لاحظ أنهم في حالة شوق وأمل.. إلى سماع صوت انفجار.. من مدفع جبار.. وإن كان لا يفزع منه حتى الجهال الصغار!

قال الإبن العاقل لأبيه المجنون: هؤلاء كلهم فدائيون.. وحتى الآن ليست لهم قاعدة.. لأنهم عناصر جديدة وافدة.. وقد تركوا زوجاتهم والأبناء.. إلى أن يقرر الله لهم ما يشاء.. ولاحظ المجنون أن هؤلاء الوافدين.. يمسكون بآلات حادة وسكاكين.. وقد التفوا جميعاً حول ضحية.. تم قتلها دون محاكمة علنية أو حتى سرية!

بعد انطلاق المُدفع الجبار.. والذي لا يفزع منه حتى الجهال الصغار.. تحركت بعض الأيادي بعنف.. وتحرك بعض آخر بلطف.. وظل المجنون يلاحظ.. بالعيون اليواقظ.. أحد أعضاء التنظيم المبيد.. وهو يلتهم المزيد تلو المزيد.. بينما كان فمه يتحرك حركة دائرية.. ليس فيها أي شاعرية.. وبعد الإفطار بقليل.. جلس هذا العضو يتلوى من ألم ثقيل.. فتطلع المجنون نحوه ومال.. ثم قال له ما قال:

لا تصم إن كنت ترضى بصيام
حسبه منع شراب وطعام
فإذا المدفع في المغرب دوى
رحت تجري في «غرام وانتقام»
قاهراً ربع خروف دون مضغ
مستقراً جنب أطلال العظام
ثم تنقض على صحن ثريد
موغلاً في الصحن إيغال الحسام
جاعلاً بطنك مستودع أكل
فيه أضلاع ضحايا وحمام

فيه مشروب لكولا قد تلاقى

مع مكبوس ففارت بانسجام

فإذا رحت لتشكو سوء هضم

لطبيب راح يصغي باهتمام

صاح فيك الدختر الكاظم غيظاً

يا نظر عيني.. تمهل.. كالكرام

إنك الآن ملوم دون شك

كرشك المتروس أكلاً لا يلام

في فطور الغد لا تستعجل الـ

أكل وامضغ بهدوء وسلام

إنما الصائم من صام بصدق

عن شرور النفس واختار الوئام

هذه الدنيا امتحان لخطانا

ليس بالبرشام نخطو للأمام!

.. أيقظ المجنون سيجارة كانت في جيبه راقدة..وانتظر حتى تم تمشيط الصحون الهامدة.. ثم صافح مودعاً أعضاء تنظيم المائدة.. خصوصاً الذين ليست لهم قاعدة.. وخرج من بيت ابنه العاقل.. حيث رأى ما استوجب منه العجب..

- أما زلت واقفاً هنا يا أستاذ سعيد باي باي..؟ يبدو أنك ما زلت تبحث عن كوب الشاي؟

★ أنا لا أبحث عن شاي الآن.. بل أنتظر وصول جنود الرومان.. لأنهم يحمون حياتي من أي عدوان!

- عدوان..؟!

★ نعم.. عدوان.. من جماعة«خيبان».. فهم الذين تسببوا في كل المصائب.. ولم

يتركوا من بعدهم إلا الشظايا والخرائب.

- وما سر هذه الحوادث؟

★ لا تقل حوادث.. بل قل كوارث.. وسأروي لك ما جرى.. وهو أمر تشهد عليه الجبال والقرى.. حيث قامت جماعة «خيبان».. بتدمير رمز مقدس لدى أحد الأديان.. وهو تمثال «بوذا» الأكبر.. وهنا تحرك من تحرك وتجمهر من تجمهر.. واندفع البوذيون غاضبين.. وثار العالم كله ضد المسلمين.. مع أن المسلمين العقلاء.. من هذا الفعل الأحمق أبرياء.

- يا أستاذ سعيد باي باي.. أنا واحد ممن يحبون سماع ألحان الناي.. لأنها تطهر بالحزن الأرواح.. وتبعد عنها صور الأشباح.. وقد حزنت حقاً حين علمت أن «بوذا» الأكبر.. قد تحول إلى شظايا وتبعثر.. ولكني أود أن أسألك الآن.. عما جرى في بعض مدن الرومان.. فأرجو أن تجيب صراحة.. لأن الصراحة راحة.

★ اعذرني.. فلن أتحدث في هذا الموضوع.

- لماذا؟.. هل هو ممنوع؟

★ لا.. ولكني لا أحب الخوض في السياسة.. لأن مستنقعاتها مليئة بالنجاسة!.

- وماذا تفعلون الآن؟

★ هناك من يدفعه الجوع إلى القتل.. وهناك من يموت من قلة الأكل.. وهناك من يحاول أن يعيش.. ولهذا يزرع الأفيون والحشيش!

.. ضحك المجنون فاغتاظ منه سعيد باي باي.. وقال له: لماذا تضحك؟.. صحيح إنني في حماية جنود الرومان..لكن الرومان موجودون في كل مكان.. ويتحركون في كل الأوطان.. وإذا كنت قد اعترفت لك بأني سعيد باي باي.. فإن كل الجيران يعيشون في الباي باي..بوجوه خائفة مذعورة.. لأنهم يجلسون على الكراسي المكسورة.. خائفين من إمبراطور الرومان.. «مهبوش» بن سكران.. وفي لمح البصر.. اختفى سعيد باي باي.. بعد أن قال بصوت ناعم ومنغم.. سلام لم.. يا مجنون.. سلام لم.

١٤

ريّال يكسر النيون .. بعد أن أحرق الدوبي البنطلون!

في الدوحة وبالتحديد.. في حي الهتمي الجديد.. يقيم المجنون منذ زمن بعيد.. وقد خرج يوم أمس.. بعد غروب الشمس.. وذهب إلى دكان «الدوبي» البائس.. لكي يتسلم ما عنده من الملابس.. وما إن اقترب المجنون من الدكان.. حتى وجد دوائر من الدخان.. وسمع أصوات هواش .. وأدرك أن صوت الدوبي قد انحاش.. وهو يواجه غضب زبون سمين.. بعد أن أحرق له الدوبي بنطلونه الغالي الثمين.. وأخذ الزبون يعدل شاربه المفتول.. وهو يهذي بما يقول:

أحرق الدوبي قماش البنطلون

فتهاوشت.. وكسرت النيون

وتعالت من هواشي صرخات

كلها تعلن عن سخط الزبون

بنطلوني الآن قد أصبح ذكرى

كيف أحيا الآن دون البنطلون!

كشخة كان.. فأضحى كشرة

وسأبكيه على مرأى العيون!

..حمل المجنون ثيابه.. وترك الريال يبكي ما أصابه.. ويغني ظلموه.. وفاتوه ونسيوه.. واقتربت أقدام المجنون في المساء.. من مستشفى الولادة والنساء، واندهش تماماً عندما استمع لطفلة صغيرة.. تروي حكايتها الغريبة والمثيرة.. حيث جلست في بطن أمها تسعة شهور.. ثم خرجت لكي ترى النور.. فاكتشفت أن أباها لا يحب إنجاب البنات.. خصوصاً وأنه قد أنجب غيرها بنات كثيرات.. ولهذا أخذت الطفلة الصغيرة.. تتكلم بنبرات كسيرة:

جلست ببطن أمي في انحناء
لتسعة أشهر آلت لانقضاء
وشفت النسا لما أخرجوني
بمستشفى الولادة والنساء
وحين خرجت قالوا: جاء Baby
بوجه مشرق رغم البكاء
وناجتني ممرضتي بصوت
فلبيني.. يبرطن في الأداء
ولفتني بثوب فيه خنه
فزدت من البهاء على بهائي
وأمسكني الأقارب باهتمام
وأمطرني الأحبة بالثناء
ولما قيل إني جئت بنتاً
وجدت أبي يولول كالنساء
وينظر لي بضيق وازدراء
ويصرخ: أرجعوها للوراء
فهل يا ناس يندري بحالي
ووين الحب يا أهل الوفاء؟

ولـــيش الأب يتطنـــز ويبعـــد

كأن البنـت رمـز للـبلاء؟!

.. حزن المجنون مرتين.. مرة حين أصبح البنطلون أثراً بعد عين.. ومرة ثانية.. حين شاهد النظرة القاسية.. يسددها أب نحو ابنتـه.. مؤكـداً أنهـا سـبب محنتـه.. وهنـا أراد المجنون أن يستريح..فقرر أن يركب بساط الريح.. لكن النزهة في الفضاء.. أضافت إليه رصيداً أكبر من الشقاء.. حيث شاهد قاعة فخمة كبيـرة.. تتجـاور فيهـا أجسـاد بشـرية كثيرة.. فتصور المجنون أن أصحابها هم أهل الكهف.. خصوصاً أن عيونهم جاحظة من رعب ومن خوف.. فأدرك المجنون أن الغاز.. قد تسبب في أسوأ إنجـاز.. حيـث بـدت وجوه الناس في القاعة.. متجمدة ومذعورة ومرتاعة.. بعد أن استنشق الجميع هذا الغاز اللعين.. فحاق بهم هذا المصير المؤلم الحزين.. ورأى المجنون رجالاً آخرين.. سقطوا متجمدين وممتقعين.. وقد وضعوا أقنعة خضراء.. يؤكدون بها أنهـم شـهداء.. وسـمع المجنون صوت رجل عاقل.. يؤكد أن ما قيل هو قوله حق يراد بها باطل.

وفجأة.. تمدد في الصمت صوت:

★ ماذا تفعل هنا يا مجنون؟

- وماذا تفعل أنت هنا يا نيرون؟

★ أريد أن أعرف نوع هذا الغاز.. وهل هو محرم دولياً أم مجاز؟

- وأنا متأكد أنك وراء ما جرى.. فأنت مشهور بإحراق المدن والقرى.

★ هل تستجوبني يا أيها المجنون؟.. ألا تدري بأني جلالة الإمبراطور نيرون.. وأن من حقي أن أفعل ما أشاء.. وما عليك سوى الطاعة العمياء!.

- أنا لا أستجوبك ولكني أكشف نواياك.. لأني أعرف حقيقـة أعماقـك وخبايـاك.. وأعرف أنك تريد ابتلاع الكرة الأرضية.. بما لـديك مـن قـوة عسـكرية.. حتـى وأنـت تتحدث عن جمال الديمقراطية!

.. دون أي إبطاء.. وضع المجنون على رأسه طاقية الإخفاء.. حتى لا يـراه نيـرون.. وأخذ يبتعد ببساط الريح في هدوء وسكون.. وصرخ المجنون: نيـرون في كـل مكـان.. وهو يتصور أنه أكبر قوة الآن!

obeikandl.com

١٥

جلالة الإمبراطور نيرون .. يفتش عما لدى المجنون .. من المخزون !

قبل انعقاد مؤتمره الصحفي بدقائق.. جلس المجنون يتأمل ما في العالم من حرائق.. وكيف تنهال أعتى الصواعق.. على الأشجار الواقفة في الحدائق.. وسمع المجنون صوت خروف يقول: ماء.. ماء.. لكن المجنون لم يعطه ولو قطرة واحدة من الماء.. فتحول الخروف إلى ذئب.. ليس له أي قلب.. وأخذ يحاول الانقضاض على كل بيت.. وهو يصيح بأعلى صوت.. يا أيها المارقون.. أنا مبعوث جلالة الإمبراطور نيرون!

رن التليفون.. في بيت المجنون.. فرفع السماعة.. بكل وداعة:

- آلو.. من أنت؟

★ ألست أنت المجنون؟

- نعم.. ماذا تريد؟

★ أنا جلالة الإمبراطور نيرون.

- أي خدمة؟!

★ لقد قررت تشكيل لجنة كبيرة.. تفتش عما يدور في عقلك من نوايا شريرة.. خصوصاً وأني أعرف أنك قاتل.. وعندك ما عندك من أسلحة الدمار الشامل.. ولهذا أريدك أن تتعاون مع اللجنة.. حتى تنجو مما أنت فيه من محنة!

= لكني متأكد أنك أنت يا نيرون القاتل.. وأنك تتعمد خلط الأوراق والمسائل.. لكي توقع غيرك في بئر من المشاكل.

★ ما هذا الذي تقوله يا مجنون؟!

- يا نيرون.. أنت قتلت أمك ثم ذبحت زوجتك.. ولما أضعت بيديك هيبتك.. قمت بإحراق روما القديمة.. وأخذت تسأل عن مرتكبي الجريمة!

.. لم يرتجف المجنون.. من مكالمة نيرون..وخرج يتسكع في الطريق.. حيث سمع صوتاً أشبه بصوت غريق.. فأرهف أذنيه.. وفتح عينيه.. ليكتشف أن الصوت صوت ريال شيبة.. شكل ينبيء بألف عيبة وعيبة.. لكنه ريال من الأثرياء..ويريد الزواج من فتاة حسناء.. محاولاً إقناعها بالموافقة.. حتى لا تتعرض للملاحقة.. من الشبان الطائشين.. أو أن يتزوجها شاب متعلم لكنه فقير ومسكين.. وأخذ المجنون يستمع إلى الشيبة المختال.. بما لديه من أموال:

يا نظر عيني.. تعالي نتزوج
كي تشوفي الكون في عينيك أبهج
واعفسي الحب ودوسيه بجوتي
واكسري هذا التليفون المبهرج
كيف تبغين زواجاً من فقير
جامعات العلم قالت: قد تخرج
إنه ليس جديراً بفتاة
جسمها إيقاع سحر يتموج
وأنا لست عجوزاً يا حياتي
فأنا بالمال أصبى من تزوج
دفتر الشيكات في جيبي أحلى
من حديث القلب عن حب توهج

وســأعطيك ألوفــاً.. وألوفــاً

فســخائي – دون حــد – يتــأجج

أسرعي الآن لكي أهديك ما لي

قبــل أن يــأتي الــذي لا يتحــرج

أسرعي حتى تكوني زوجـة لي

قبل أن أشهد جسـمي يتـدحرج!

أنــت طَبــي ودوائــي فتعــالي

إننــي الآن لقربــي منــك أحــوج!

.. هذا الزواج لا يجوز.. هذا ما قاله المجنون وهو ينظر إلى أنف العجوز.. فتأكد لـه أنه أكبر من الكوز!.. وواصـل المجنـون المسـيرة.. وهـو يحـس بقشـعريرة.. وفجـأة تمخض الصمت عن صوت كسر حاجز الصوت.. فـاهتز كـل بيـت.. ثـم هبطـت مـن السماء.. عصابة من القراصنة اللؤماء.. وكان في يد أحدهم خنجر مسـنون.. بينمـا كـان وجهه وجه شيطان ملعون.. وأخذ يقترب من المجنون ويصول ويجول.. وهو يقول:

– لقد سمعنا في بيتك صوت فرقعـة.. ونحـن نعـرف أنـك أنـت الـذي أثـرت هـذه الزوبعة!

.. تنبه المجنون أنه قد نسي فوق البوتاجاز.. وعاء فيه دجاجة من نوع ممتاز.. فقـرر الرجوع إلى البيت في الحال.. لكن الشيطان المحتال.. دخل البيت قبله ثم قال:

– لماذا تمتلك كل هذه السكاكين؟

★ لكي أمزق بها أفخاذ الدجاج السمين.

– لكن ما لدينا من حكمة وعقل.. يؤكد أنك قد تستخدمها في القتل!

★ قبل كل شيء.. قل لي من أنت؟.. ولماذا دخلت البيت؟

– ألا تعرفني يا مجنون؟!.. أنا مبعوث جلالة الإمبراطور نيرون.. جئت لألقي عليك القبض.. حتى لا تعيث فساداً في الأرض!

obeikandl.com

١٦

عبد الوارث ينطلق بسيارة حكومية .. من الموسكي لسوق الحميدية !

يروي المجنون الآن أغرب حكاية.. فقد كاد ينتهي أسوأ نهاية.. حين اندفعت خلفه بكل شموخ.. سيارة يتصور صاحبها أنها صاروخ.. وفجأة خفف السائق من سرعته.. ليحقق النجاح لخطته.. حيث أخرج يده من السيارة.. ورمى بسرعة ومهارة.. ورقة ملونة عليها عدة أرقام.. وشريط أغان لأحد مطربي الغرام.. لكن السيارة التي تضم عدة نساء.. تخلصت من الورقة والشريط بسخرية واستهزاء.. فأحس السائق بالحرج من فعلته.. وقرر أن يخرج من محنته..

وهكذا اندفع في حالة هياج.. ليبحث عن لعبة أخرى تعيد له صفو المزاج.. فأغلق زجاج السيارة.. وأخذ يتلوى ويحفص في الإشارة.. ويصول ويجول.. وهو يقول هذا الذي يقول:

في إشارات رمادا ضاع عقلي

فأذقت الناس من أطباق ويلي

كنت في السيارة الكشخة أبدو

مثل رامبو وعروق الطيش تغلي

ومن الكورنيش للملعب أهدي

كل مخلوق أمامي نار غلي

وإذا مـرت وجـوه ناعمـات

كـان إهـداء التليفونـات شـغلي

وشريط الحب ألقيه بلطف

قـرب أيـديهن مزهـواً بفعـلي

فـإذا راقبـت إحـداهن تلقـي

بشريطي .. خر زهوي تحت نعـلي

كشخة لبسي وحلو غمز عيني

وبسحري.. حفظ الكورنيش شكلي

عائلات النـاس تلقـاني مـراراً

رائـع التحفـيص في الليـل المطـل

وإذا سابقت غيري في انطلاقي

يهـرب الكـل – بخـوف – ويـولي

حـاملاً ذرات رمـل وغبـار

كلهـا هبـت لكـي تعلـن فضـلي

هل رأيـتم عبقريـاً فيـه بعـض

من ذكـائي يحسـن التـدبير مـثلي؟

أيها الناس تعالوا واشـهدوا لي

فأنـا الأول في طيشـي وهـزلي!

.. أصيب المجنون بحالة رعب، وانخلع منه القلب، وهو يرى ما يرى من تحفيص، ونظراً لأن المجنون دائماً حريص، فإنه ركب بساط الريح الـذي أهـداه إيـاه العفريـت، وطار وطارت معه علبة سجائر وكبريت، وفي الفضاء استمع المجنـون لأغنيـة قديمـة، كانت تثير فيه الهمة والعزيمة:

م الموسكي لسوق الحميدية

أنـا عارفـه السـكة لوحديـة

.. أطل المجنون على الأرض من الفضاء، فرأى أنهاراً ولكنها حمراء.. لأن مياهها دماء.. ورأى سيارة حكومية، تندفع بسرعة جنونية، أما من فيها فكانوا يؤدون حركات تمثيلية، وهم يغنون «م الموسكي لسوق الحميدية».. ولم يستطع المجنون أن يدقق النظر، فتصور أن السائق هو الفنان عبد الوارث عسر، وأنه يريد الذهاب إلى سورية، لإقامة أحد العروض المسرحية، لكن المجنون تذكر أن عبد الوارث قد مات، ولم يعد يستطيع القيام بما كان يؤديه من حركات!

تمعن المجنون في السيارة الحكومية، فأدرك أنها تخالف كل القواعد المرورية، وأن السائق يتمتع بأعصاب باردة، كما أن الأجواء السائدة، تتيح له أن يتحرك كما يشاء، خصوصاً أن عيون الذين معه تبدو عمياء، ومن بعيد سمع المجنون صوت أحد الشعراء.. ممن هاجروا من الشام إلى مصر.. وهو يقول بانفعال ويصر:

«كل قوم.. خالقوا نيرونهم

قيصر قيل له أم قيل كسرى»

أخذ المجنون يفكر فيما قاله خليل مطران.. بصوته الحزين الغضبان.. وفجأة ترددت في الأجواء.. كلمات تكشف سر الداء:

«كلمتين يا مصر يمكن هما آخر كلمتين

حد ضامن.. يمشي آمن

أو مآمن يمشي فين؟

قصرك المسحور.. غيلانه

أغبى من دود الغيطان

بعد مص الغصن الأخضر

ينحتوا عضم العيدان

واللي خلا الأرض خضرا

واللي خلا الدار أمان

عاش بجوعه ملو جوفه

مات بخوفه م الغيلان..»

وسط الزحام شاهد المجنون متفرجين كثيرين، وهم يصفقون مهللين، بينما كان أحد الحكماء المخضرمين، يصرخ في قاعدة جامعة أجنبية.. محاولاً إنقاذ غزالة جميلة، اسمها بهيّة.. وهو يؤكد «بصراحة».. أن الغزالة محتاجة لجراحة.. وأن المستقبل الآن.. لا يتطلب أي تهاون أو هوان!

obeikandl.com

١٧

عنترة بن شداد ... ينهض من الرماد .. بعد طول رقاد

هو فارس شجاع ونبيل.. وفضلاً عن هذا فإنه شاعر عربي جميل.. وقد غاب هذا الفارس الشاعر منذ عدة قرون.. ولكنه ظل يعيش في قلوب الذين يتذكرون.. وبأشعاره يترنمون.. وبوفائه لابنة عمه يتأثرون.. وفجأة شوهد الفارس الشاعر وهو ينهض من الرماد.. بعد طول رقاد.. تماماً مثلما يفعل طائر الفينيق.. حيث يحرق جسده العتيق.. ليخرج من الرماد ممتلئاً بالحيوية.. بفضل روحه المتجددة الحية.

من مظهره المهيب..ولونه الأبنوسي العجيب.. أدرك المجنون أن الرجل الذي ينهض من الرماد.. لابد أن يكون عنترة بن شداد.. فاندفع نحوه المجنون بكل ثقة واعتداد.. وحاول أن يقبل يده من فرط الزهو والطرب.. لكن عنترة أفشل المحاولة بأدب.. وقال للمجنون إن على أبناء العرب.. ألا يقبلوا الأيادي.. وإنما عليهم أن يمزقوا أجساد الأعادي!

اطمأن عنترة على وجود سيفه بجواره.. وانطلق على الفور كي يبحث عن أهله وديارة.. وحاول أن يتذكر دار «عبلة».. وكيف كان يتشوق إليها كل ليلة.. وطلب المجنون من عنترة أن يسير معه.. لأنه يحبه ويريد أن يتبعه.. ورحب عنترة بالمجنون.. لكنه حدثه بما في نفسه من ظنون..

★ أين سيفك أيها الفتى العربي؟

- يا سيدي.. بكل أسف.. ليس عندي سيف!

★ أهذا معقول؟.. ما هذا الذي تقول؟.. لابد من وجود السيف.. لحماية العرض.. وصون الحق والأرض.. كيف تحمي عيالك دون سيف.. وكيف تواجه ما قد تواجه من عنف.. وكيف ترد كيد الأعداء.. إذا أقبلوا في الليلة الظلماء؟.. لابد من وجود السيف.

- لدينا من السيوف.. بدل الواحد ألوف.. ولكنها لا تستعمل إلا للزينة.. وكثيرون الآن يفاخرون بما لديهم من سيوف الزينة.. مادامت سيوفاً ثمينة!.

.. ضحك عنترة ضحكة زلزلت الصخر.. وقال بكل ثقة وفخر.. أما أنا فلن أنزع عني هذا السيف.. في برد الشتاء أو حر الصيف.. السيف صديقي.. السيف رفيقي.. وبالقرب من دار عبلة تأمل عنترة ما أمامه.. مما أثار دهشته واهتمامه.. فقد شاهد وجوهاً أجنبية غريبة.. يرتدي أصحابها ملابس غريبة.. وهم يحملون أشياء غريبة.. تبدو كالسيوف.. لكنها ليست بسيوف.

بعد دقائق وجد عنترة والمجنون رجلاً عربياً يقترب منهما.. وبعد أن سلم عليهما.. دعاهما إلى داره ليشربا القهوة.. ورحب الإثنان بالدعوة.. ودخلا ليجدا ما يعرفه المجنون وما يجهله عنترة.. حيث وجدا ضيوفاً يجلسون.. ويعيونهم يتأملون.. ما يرون على شاشة التلفزيون.

ما أعجب التلفاز من متكلم
يأتيك بالخبر الذي لم تعلم
الشاشة البيضاء تنبض حية
وكأنها وجه تورد بالدم
يا ليت عبلة في جواري كي ترى
ما قد أتاح العلم بعد تقدم
صار البعيد بقربنا فأمامنا
كل العوالم في جهاز محكم

إني أرى قنـــوات دش أقبلـــت

وتزاحمت في الجـو بـين الأنجـم

وأرى وجوهاً رتبـت مكياجهـا

وأرى نســـاء دون أن تحشـــم

وسعار«جهـاز» أحمـق يلهـو بنـا

وضـجيج ألسـنة بغيـر متـرجم

ويقرص ليزر تبدأ الحرب التـي

لا تتـــرك الأطفـــال دون تيـــتم

الحـرب صـارت لعبـة لمقـامر

أو جـــائر أو طـــامع في مغـــنم

الحرب صارت لعبـة ووقودهـا

أجســـاد أهلينـــا بكـــل مخـــيم

وقوافـل التعسـاء تعبـر دجلـة

والنيـل يبـدو كالضـرير الأبكـم

ويظـل مـن يتفرجـون كـأنهم

يتنزهـون عـلى ضـفاف جهـنم!

إني أرى مكر اليهـود وغـدرهم

ووعيـد هولاكـو بصـبح مظلـم

«هلا سألت القوم يا ابنة مالـك

إن كنـت جاهلـة بمـا لم تعلمـي»

كنـا نقاتـل خصـمنا بشـجاعة

ويذوق طعم العـار مـن لم يقـدم

والآن.. والحرب التي لن تنتهي

يطغى جنون لهيبها المتضرم

الآن.. ناموا يا أذلة عصركم

بعيون من سعدوا بشرب العلقم

إني برئت من المذلة صارخاً

صوني ترابك «دار عبلة واسلمي»

obeikandl.com

١٨

عنترة بن شداد ..
يواجه أسراب الجراد .. بكل ثقة واعتداد

لولا أنه يحب أن يترك الدموع للنساء.. لكان عنترة قد أجهش بالبكاء.. بعد أن أدرك أن عصره الذي ولد فيه.. أجهل ألف مرة من هذا العصر الكريه.. فقد كان الإنسان العربي يسعى لنجدة أخيه.. وإذا وقع في مكروه فإنه كان يحميه.. لأن الناس كانوا يهبون لنصرة المظلوم.. وإغاثة الضعيف والمحروم.. أما هذا الزمان الذي يراه عنترة.. فهو زمان الهوان والمسخرة.. وكل إنسان.. يحاول أن ينقذ نفسه من الطوفان.. ولا يمد يده لمساعدة غريق.. حتى لو كان أعز صديق!

على الرغم من إعجابه بتقدم التكنولوجيا والعلوم.. أحس عنترة أنه يحمل جبالاً من الهموم.. وفجأة سمع هو والمجنون موسيقى ضحكات.. فتطلعا حولهما ليجدا عدة فتيات.. كلهن بيضاوات وشقراوات.. وكلهن أجنبيات يرتدين بنطلونات.. بعضها ضيق ومزخرف.. وبعضها واسع ولامع ومهفهف.. وبرشاقة الغزال.. اندفعت إحداهن في الحال.. وفتحت ذراعيها لتحتضن المجنون.. بينما اندفعت فتاة بغير جفون.. وتهيأت لتقبيل عنترة.. فدفعها بعيداً وهو يصرخ: ما هذه المسخرة؟!

طرقعت الفتاة قطعة من اللادن أو اللبان.. وقالت وهي تجز على الأسنان:

- يا مستر «أنتر».. ما هذا الذي به تتبختر..؟

- إنه سيفي أيتها الغانية.. وهو رفيقي في مواجهة القوى الباغية.

- إذا لم يكن قد وقعت في خطأ أو سهو.. فإن ما أعرفه جيداً أن السيف الآن للهو.. فإذا كنت تحمله للهو فأنعم بالأمان.. ومن حقك طبعاً أن ترقص به مثلما يفعل الفرسان الآن!

- اغربي عن وجهي.. حتى لا يزداد لك كرهي.. إن السيف لنصرة الجار.. وحماية الأرض والدار.

هزت وسطها إحدى الفتيات الشقراوات.. وقالت إن ما يقوله عنترة مجرد «عنتريات».. فزمجر عنترة وقال بغضب: إن سيفي ليس من ذهب.. لكنه يقاتل دفاعاً عن أرض العرب.. وجذب عنترة المجنون بشدة..وقال له أتعرف لماذا كل هذه الحدة؟.. سأقول لك ما أعرفه بكل وضوح.. وهو أمر لا يحتاج لشروح.. ولن أقول لك سوى احذر كيدهن.. فكلهن جميعهن.. يعملن مع الأعداء.. حيث يقمن بالتجسس علينا بكل دهاء.

فجأة أحس عنترة بالشوق لعبلة.. وتذكر كيف كان يشتاق لها كل ليلة.. فانطلق إلى الشعر.. ليداوي به قلبه بعد طول صبر:

أرنو لعبلة لا أحب سواها

وإذا اندفعتُ إلى الوغى.. ففداها

«وأغض طرفي ما بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها»

والسيف في كفي يبارك خطوتي

ويعيد لي حقي إذا ما تاها

السيف جسر لاستعادة مجدنا

إن ضاقت الدنيا بمن يحياها

والحرب ليست نزهة خلوية

لكننا إن أقبلت نغشاها

ما أجبن الفرسان إن لم يقبلوا

أو أقبلوا متجنبين لظاها

حرية الإنسان ليست منحة

تُهدى لمن يتصاغرون جباها

«ولئن سألت بذاك عبلة أخبرت

أن لا أريد من الحقوق سواها»

حاول المجنون أن يخفف عن عنترة ما اعتراه.. فقال له: لو سمعتك منظمات حقوق الإنسان لقالت: الله.. الله.. فأنت بالفعل تحب الإنسان.. وتحثه على رفض الذل والهوان.. ولم يهتم عنترة بالمديح.. بعد أن تغلغل ببصره في الأفق الفسيح.. فوجد أسراباً من الجراد.. تتشبث بالزرع بكل عناد.. وتنقض على الحصاد.. كأنها والشيطان على ميعاد.

حمل الهواء صرخات مذعورة.. أطلقتها حناجر مقهورة.. فانطلق عنترة بكل قوة.. وحاول المجنون أن يستعيد بعض ما كان من الفتوة.. فانطلق هو أيضاً معه.. حريصاً كل الحرص أن يتبعه.. وصاح عنترة بأعلى الصوت.. فليسقط حائط الصمت:

«لما رأيت القوم أقبل جمعهم

يتذامرون كررت غير مذمم»

يدعون عنتر.. والجراد بحقده

يلقى مواسم خصبنا بتجهم

هيا انهضوا.. أنتم من الأرض التي

لم تنكسر يوماً ولم تستسلم

هذا الجراد خرافة وهمية

سيزيحها الفرسان عند المقدم

obeikandl.com

١٩

عنترة يمشي مرفوع الرأس .. بعد أن بدد غيوم اليأس

لم يكن الليل قد أقبل.. لكن كثيرين أحسوا أن كل شيء يوشك أن يتزلزل.. وهكذا تجمعت غيوم اليأس.. لكي تحجب نور الشمس.. ولكي ينسى اللاهون ما يجري انطلقوا إلى الكأس.. وصرخ المذعورون: ما هذا اليوم النحس؟! ورأى الجميع أسراب الجراد.. تهبط من السماء التي صبغتها بالسواد.. لكي تنقض على الأشجار في كل البلاد.. وتستثمر لصالحها موسم الحصاد.. وأخذ الجراد يلتهم الزرع بشراهة.. بينما كان قليلون يراقبونه بكل بلاهة.. أما الذين أضناهم التعب..وتشوقوا لجمع القطن وقطف العنب.. فقد استبد بهم الغضب.. فتأكد لعنترة أن هؤلاء هم العرب.. وأن الوقوف معهم لا يحتاج لتبرير أو سبب.

ضحكت جرادة غريبة وهي تقول لصديقها الخفاش.. هؤلاء الناس أوباش.. ولابد من قتلهم أو رميهم داخل الكهوف والأحراش.. واستمعت الجرادة للخفاش، وهو يقول: لا تهتمي بهم فليس فيهم من يصول ويجول.. المهم أن يكون الفساد بينهم في ازدياد.. حتى ننقذ أنفسنا من الركود والكساد.. والآن يا جرادتي الجميلة.. أريد منك قبلة طويلة.. ما دمنا قد قضينا على بعض الأشجار المثمرة والظليلة.. وجعلنا أعناق الذين يضايقوننا ذليلة.. وفي الحال اندمجت الجرادة والخفاش في عناق محموم.. لكنهما

تنبها بسرعة عندما استنشقا رائحة سموم.. واندفع نحوهما حجر.. وبعده تطاير من عيني عنترة الشرر.

قال عنترة للمجنون.. فلتتحرك معي لمواجهة الجراد الملعون.. من أجل نصرة كل والد ومولود.. أنا أقاتل.. إذن أنا موجود.. فاستوقفه المجنون وقال: لكن غيوم اليأس تغمر أجواء القرى والمدن والجبال.. فانظر يا عنترة إلى السماء.. فما كان من عنترة إلا أن أشهر سيفه في الهواء.. وأخذ يلوح به دون إبطاء.. مؤكداً أن ليس في السماء غيوم يأس.. وإنما هي في كل نفس، تستسلم لما يواجهها وما تعاني منه من بؤس.. إن الغيوم ليست في الآفاق.. لكنها تتحرك في الأعماق.. وعلى كل من يشتاق.. للفرحة بالخضرة والنور.. أن يوقظ قلبه الجسور.. حتى يعانق الحياة.. وهو يواجه الشر الآتي من أي اتجاه.. وفجأة سمع عنترة والمجنون.. صوتاً قادماً من وراء القرون.. وتخيل المجنون أن الصوت صوت المتنبي وقد عاد.. كما تصور أن أرواح الأجداد.. تريد أن تعيد للأحفاد.. بعض ما فقدوه في أزمنة الفساد والكساد والرماد.. وهكذا انطلق الصوت.. ليدك أسوار الصمت:

أين العروبة.. لا عز ولا همُ
ولا إخاء به صدق ولا ذممُ
الغول مندفع بالشر يحمله
وما لديكم سوى صمت هو العدم
أغايةُ الصمت أن ترضوا جبابرةً
يا أمة طمستْ أعماقَها الظلمُ
إطراقة الذل لن تحمي جماجمكم
فكلكم ورق تلهو به حمم
وكلكم في يد الطاغوت لعبته
مهما خنعتم فإن الكل متهم

مواكب العار في الإعصار مطرقة

وفي انتظار نداء الغول تزدحم

شوهد عنترة والمجنون يتقدمان.. عنترة والسيف في يده عنفوان.. والمجنون في يده وردة من شقائق النعمان.. وحولهما كان حشد من الفرسان الشجعان.. يتهيأ لمواجهة الجراد الجبان.. وفجأة ضحك المجنون من أعماق القلب.. كأن الحب قد عاد له رغم الشيب.. فالتفت عنترة نحوه بكل وقار وسأله: ما يضحكك أيها الفتى المهذار..؟ .. فضحك المجنون مرة ثانية.. وأشار إلى بقعة نائية.. فأدرك عنترة أن الجرادة والخفاش.. واقعان على الأرض دون حركة ولا ارتعاش.. وأنهما في حالة إعياء.. بل في شبه غيبوبة وإغماء.. وأن حالتهما تدعو للرثاء.. وهذه مهمة الشعراء المرتزقة الأجراء.

ضحك عنترة كما يضحك البسطاء.. وقال للمجنون إنه ليس من هذا النوع من الشعراء.. أما المجنون فقد أكد حبه لعنترة.. خاصة أنه ممن يعفون عند المقدرة.. لأنه عربي أصيل.. وفارس شهم نبيل.. وهنا رفع عنترة الرأس.. بعد أن بدد غيوم اليأس.. من أعماق كل نفس.. وقال وهو ينطلق تحت الشمس:

سقط الذين سقوطَهم أتوقعُ

وثمار أرضي في الربيع ستطلعُ

إني من الأرض الأبية فارس

يحمي الحمى ويُبيد من قد يطمع

سأظل أهتف يا عروبة أقدمي

والسيف في كفي ضمير يسطع

obeikandl.com

٢٠

الجبناء يعتصمون بجبل السكوت .. تاركين من يموت يموت

لم يعد أحد يصدق ما تراه عيناه.. فالعاصفة الجامحة تتحرك في كل اتجاه.. والأمواج السوداء تقترب من الشطآن.. وتتجمع من أقصى مكان.. لتتحرك في هيئة طوفان.. ومن قلب الأمواج خرج أخطبوط رهيب.. وأخذ يلتف بأذرعته على كل من هو قريب.. والغريب أن هذا الأخطبوط الرهيب.. يستطيع أن يمشي بسرعة عجيبة.. وبإمكانه أن يطير في الجو بأجنحة مريبة.. أما الجواد فقد أعلن بكل عناد.. أنه لن يغتصب موسم الحصاد.. وإنما يريد أن يحرره من قبضة الجلاد.. لكي يهديه إلى كل الناس.. بشرط ألا تكون في أفواههم أضراس.. حتى لا يخدعهم الوسواس الخناس!

أغلق الجبناء أفواههم بالشمع المختوم.. ثم حملوا معهم ما هو مجهول وما هو معلوم.. وأخذوا يعتصمون بجبل السكوت.. تاركين من يموت يموت.. دون أن تحمر وجوههم من الخجل.. لأنهم لم يفكروا في أي عمل.. فبادرهم صوت شجاع.. وهو ينطلق بكل اندفاع.. ما طار طير وارتفع.. إلا كما طار وقع.. أما الذين آثروا السلامة.. فقد تمنوا للأخطبوط طيب الإقامة.. وقام بعضهم بإشعال النار.. لكنها امتدت إلى أجمل الأشجار.. ولم يعبأ الأخطبوط بهم أو يهتم.. وإنما طلب منهم أن يأتوه بكأس الدم.. واستحسن المنافقون بالطبع ما طلب.. وقالوا له بكل خشوع

وأدب: إن طعم الدم لذيذ.. بل إنه ألذ من النبيذ!

كان عنترة بن شداد.. نائماً بعد ليلة، أرقه فيها السهاد.. فأيقظه المجنون من الرقاد.. وروى له ما يدور وما يجري.. وحدثه عن السم الزعاف الذي يوشك أن يسري.. فتساءل عنترة بحدة وغضب.. وأين هم العرب؟.. ألم يكونوا يفاخرون بنصرة الجار.. ويقفون في وجه من جار؟.. أليس لديهم سيوف؟.. أم أنهم أصبحوا مجدوعي الأنوف.. وصرخ عنترة بن شداد.. وهو يمسك سيفه باعتداد:

هل أصبح الإذعان نجم الموسمِ
أم هل شربت الكاس قبل تندمِ
يا دار عبلة.. للشروق تطلعي
رغم احتدام النار أو سيل الدم
لا تعبئي بالناظرين وصمتهم
فالناظرون إليك.. كلهم عمي
لم يرفعوا سيفاً فيرفع شأنهم
أو ينجدوا طفلاً بأرض مخيم
لم يعرفوا الطاغي من المظلوم مذ
سيقت خطاهم في الطريق الأشأم
أو يبصروا شمس التآخي فوقهم
فتدحرجوا في قاع ركن معتم
يا ليتهم خبروا الزمان فلم تصم
أشواقهم عن خطوة لتقدم
لكنهم – احسرتا – خافوا فلم
يُكتبْ لهم غير اجترار العلقم

دفعـوا فـواتير الشـراء مقـدماً
وتـدافعوا شـوقاً لأخيـب مغـنم
حسبوا الطعام يفيـدهم ويعيـدهم
في الليـل شـبانا بملهـى الأنجـم
فـإذا الطعـام شـرائح مـن جيفـة
والسـم يسـري في نخـاع الأعظـم
وبقـرب تمثـال الغـرور ترنحـوا
وهمـو جلـوس في نعـيم جهـنم!
ليظـل مـنهم مـن تلـذذ بـالأذى
ويظل منهم مـن بـوحش يحتمـي
ويظـل مـنهم مـن يـراقص ظلـه
ويطيـل رقصـته إلى أن يرتمـي!
أمـا أنـا.. فقـد انطلقـت ملوحـاً
بالسيف في وجـه اللئيم المجـرم
ومعي رجـال مـن سـلالة يعـرب
لم ينحنـوا.. وإليـه كـل ينتمـي
« ولقد شفى نفسي وأبـرأ سـقمها
قيل الفوارس: ويك عنتـر أقـدم»
وحصانيَ المشتاق يصـهل جائعـاً
للنصـر.. لم يرجـع ولم يستسـلم
ولقـد لمحتـك والظـلام مخـيم
حولي ورفض الذل ينضح من دمي
فـوددت أن يصـحو النهـار لأنـه
آتٍ بوعـدِ زمانـكِ المتبسـم

obeikandl.com

٢١

عنترة يسحق عقربة .. حاولت بوقاحة أن تصاحبه!

بكل شموخ، رفض عنترة.. أن يجعل من جسده العملاق قنطرة.. تعبر عليها مواكب العقارب.. لكي تبث السم في أجساد بعض الأقارب.. بل إنه سحق بإحدى قدميه عقربة.. حاولت – بكل وقاحة – أن تصاحبه.. حيث تغزلت بجسده البرونزي.. وقالت له: ما أجملك أيها الأسمر الديمقراطي.. وبعد قليل نعقت مجموعة من الغربان..فسقط على قفاه رجل جبان.. يتظاهر عادة بأنه قد أوتي الحكمة.. مع أنه دائماً يبحث عن قطعة لحم أو عظمة.. وقال الجبان بعد أن نهض واعتدل وقام..«ما بنا طاقة لامتشاق الحسام».. وبعد دقائق من الصمت المريض.. شاهد الناس وميضاً تلو وميض..ثم عرفوا أن بعض الذين كانوا يلهون.. قد احترقوا وهم يرقصون.. وعلى الرغم من شراسة الأخطبوط.. وقدرته الشريرة على الإمساك بكل الخيوط.. إلا أنه أدرك أنه أصبح في ورطة.. وأنه صار مثل القطة.. عندما تشتعل في ذيلها نار.. فتظل تصرخ وهي تجري من دار إلى دار.. وفي غضون لحظة، حملت الريح.. صوتاً أثقلته المعاناة والتباريح.. وعلى امتداد الصحارى والسهول.. أخذ هذا الصوت يرتفع ليقول:

«لا تصالح.. ولو قال من مال عند الصدام

ما بنا طاقة لامتشاق الحسام..

عندما يملأ لحق قلبك.. تندلع النار إن تتنفس
ولسان الخيانة يخرس
لا تصالح.. ولو قيل ما قيل من كلمات السلام
كيف تستنشق الرئتان النسيم المدنس؟
كيف تنظر في عيني امرأة..
أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟
كيف تصبح فارسها في الغرام؟
كيف ترجو غداً.. لوليد ينام
كيف تحلم أو تتغنى بمستقبل لغلام
وهو يكبر – بين يديك – بقلب منكس؟
لا تصالح.. ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام..»

صرخ المجنون بفخر.. هذا صوت صديق من أغلى أصدقاء العمر.. فسأله عنترة وهو شبه حائر.. من يكون هذا الشاعر؟.. إنه ليس من شعراء عصري الغابر.. فأجاب المجنون قائلاً: إن هذا الشاعر.. ممن عاشوا أوجاع هذا الزمن الحاضر.. وإن اسمه أمل دنقل.. وهو صاحب مقولة: لابد أن تقتل الطامعين فيك وفي أرضك حتى لا تُقتل.. فأكد عنترة وقد اكتسى وجهه بنور الرجاء.. أنه رغم وجود كثيرين من الجبناء.. إلا أن الأرض العربية تنجب الشرفاء.. سواء أكانوا من الشعراء.. أو من الناس الطيبين البسطاء.

فجأة فاحت في الجو رائحة خزامى وياسمين.. وحملت أجنحة النسيم برقة وليس صوتاً نسائياً عذب الإيقاع.. تسلل بنعومة إلى الأسماع:

«أنا – والله – أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتيه تيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلتي من يشتهيها»

اغتاظ عنترة مما استمع.. وقال للمجنون: هل هذا وقت للدلع؟.. وسأله: هل تعرف هذه الشاعرة؟.. فأجاب المجنون إنها امرأة جميلة وساحرة.. واسمها ولادة بنت المستكفي.. وهي لا تستطيع أن تكتم ما في قلبها أو تخفي.. فاحتد عنترة قائلاً: هذا يكفي؟!! هل هذا وقت لتقبيل الخدود.. أم وقت للدفاع عن مجرد الوجود.. بعد أن استبيحت كل الحدود؟

رغم إدراك المجنون أن الظلمات مسمرة.. إلا أنه حاول أن يخفف الضيق عن عنترة.. لكي يستعيد روحه المستبشرة.. فقال إن ولادة ليست امرأة لاهية.. لكنها تحب أن تتباهى بأنوثتها الطاغية.. وقد أحبها ابن زيدون.. وتغزل فيها بشغف وجنون.. لكنها هجرته فأحس بلوعته العاشقون.. وتغنى بأشعاره المطربون.. خاصة وأنه كتب عنها أجمل القصائد.. وإن كانت قد تسببت فيما حيك ضده من مكائد.

حين عرف عنترة حكاية ولادة مع ابن زيدون.. تفتحت في قلبه أزهار حبه المكنون.. فاشتاق لوجه عبلة الحلوة.. وبسمتها الصافية المجلوة.. فطلب من المجنون.. أن يسمعه بعض ما قاله ابن زيدون.. وبدأ المجنون الإنشاد.. في حضرة عنترة بن شداد:

الصد يبعدنا.. والشوق يدنينا
يا جنة الروح يا أحلى أمانينا
ماذا أقول.. وقد كانت لنا صور
على الضفاف وكان الحب يسقينا
كنا نغني ووجه البدر يؤنسنا
والأرض خضراء تهدينا رياحينا
والآن مذ أطلق الحساد أسهمهم
ولم يعد قلبكم يدري بما فينا
«بتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

نكـاد حـين تنـاجيكم ضـمائرنا
يقْضي علينا الأسى لـولا تآسـينا

حالـت لفقـدكمو أيامنـا فغـدت
سوداً.. وكانت بكم بيضاً لياليناء

يا ليل قرطبة هل كنـت تحسـبها
يوماً ستنسى غراماً كـان يحيينـا

في قلب أندلس أصحو بلا وطـن
ولأَدةُ أحرقـت بسـتان ماضـينا

ضلت خطانا مع الطوفان موقعها
لم تَبْـقَ تصـحبنا إلا مآسـينا

.. شرد ذهن عنترة مما استمع إليه ووعاه.. لكنه عـاد بسـرعة إلى اليقظـة والانتبـاه.. وقال للمجنون وهو يتصنع ابتسامة.. لم تحل لها على شفتيه الإقامة.. يبـدو أن الحـب.. أشبه ما يكون بالحرب.. ففيه من ينتصرون.. وفيه من ينكسرون.. كان الله في عـون ابـن زيدون.. وسامح الله ولادة.. على ما فعلته بقصد وإرادة.. وربمـا دون إرادة.. ويبـدو أن مآسينا العربية.. تتناسل كالنباتات الشيطانية.. ولكن الأكيـد.. أن الخطـر الآن شـديد.. انظر يا مجنون إلى الجراد.. كيف طغى وساد.. وانظر إلى الأخطبوط.. وتذكر أنه يطغـى لكي يتقي السقوط.. وفي النهاية فإني أسألك ولا أطلب منـك أن تجيـب.. طالمـا أنـك توشك على البكاء والنحيب.. كيف يمكن أن يأتي الربيع.. إذا لم يتنبه الآن الجميع؟!

٢٢

زهير بن أبي سلمى ...
يتحول من مبصر إلى أعمى !!

لم يبق عندي ما أقول.. هذا ما قاله عنترة بعد أن لفه الذهول..وأدرك أنه قد يخسر الحرب.. على الرغم من شجاعة القلب، فقد رأى أنه كلما قضى على مجموعة من الجراد.. جاءت مجموعات أخرى بكل عناد.. بعد أن يغريها الفساد.. بأنه سيترك لها موسم الحصاد.. وقال عنترة للمجنون: أين هم الناس؟.. هل فقدوا ما كان لديهم من إحساس؟ لقد كانوا في الزمان البعيد.. يجتمعون على رأي واحد سديد.. فيذوق عدوهم بأسهم الشديد.. أما الآن.. فإنهم بدلاً من أن يصدوا الطوفان.. يحاول كل منهم أن يداري عاره وبؤسه.. وأن ينقذ نفسه.. دون أن يفكر في أقرب الناس إليه.. ولهذا لن يفتح الله عليه.. ولن يفتح على من تفرقوا أجمعين.. طالما أنهم يتلاقون متباغضين ومتنابذين.. هؤلاء الناس ليسوا أحياء، بل موتى.. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى..ومهما قيل لهم واعتصموا بحبل الله.. تراهم يتفرقون في كل اتجاه.

بينما كان عنترة يتكلم.. محاولاً أن يخفي عن المجنون أنه يتألم.. شاهد المجنون قطتين تتشاجران.. إحداهما تبدو مثل شجرة عارية بلا أغصان.. والثانية تحب أن ترقص ولو مع الشيطان.. وبدأت القطتان تتبادلان الاتهامات.. وكل منهما تكيل للأخرى كلمات حبلى بالافتراءات.. اخرسي يا من يحضنك النسر

الدموي.. اسكتي أنت يا من تتملقين الدب القطبي! وفي الحال حملت الريح صوت شاعر أندلسي.. يقول بصوت مأساوي:

«مما يزهدني في أرض أندلس

أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد»

دون أن ينطقا أية كلمات.. تبادل المجنون وعنترة النظرات..وتكدست فوق الظلمات ظلمات.. وهنا قال عنترة.. يكفيني ما رأيت من مسخرة.. آن لي أن أودعك..فليكن الله معك..

ترقرقت من عيني المجنون دموع.. وتحولت الدموع إلى شموع.. وعلى ضوئها الشاحب.. شاهد المجنون بوابة يفتحها رجل غاضب.. ودخل عنترة من البوابة العجيبة.. بينما خرج منها رجل تبدو ملامحه مهيبة.. لكنه يتعثر في مشيته.. وهو يحاول إزاحة جرادتين عن جبهته.. وأخذ الرجل المهيب يصيح.. ويتردد صياحه في الخلاء الفسيح:

«وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو

وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

وتضر إذا أضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها

وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم»

.. على الرغم من توتر أعصابه المرتاعة.. استجمع المجنون بعض ما تبقى لديه من شجاعة.. وخاض في بحر من الظلام.. عساه أن يتعرف على من يدعو للسلام.. ويطالب

بعودة الوئام.. لكي يستطيع الربيع أن يعود.. بعد أن يحطم القيود.

★ يا عم.. إني أعرف جيداً ما تحمله من هم.. لكني أريد أن أسأل من أنت.. خصوصاً أني أعرف ما قلت.

– هل تعرفني حقاً يا ابني؟.. إذا كنت تعرفني فهذا سيخفف طبعاً من حزني.

★ أعتقد أنك شاعر قديم.. وإنسان حكيم..

ترى من أكون؟

.. رأى المجنون أن الجرادتين.. مازالتا واقفتين متشبثتين.. وأن جبهة الرجل لا تكاد تبين.. فأزاحهما دون هوادة أو لين.. وهنا رأى عينين شبه مغلقتين.. فقال بحزن: يا عم.. إن الرجل الذي أعرفه اسمه زهير.. لكنه..

وفي الحال قال الرجل للمجنون.. بصوت هادئ محزون: اسمع يا بني.. إن دعاة الحروب.. وزارعي الفتن والكروب.. لا يحبون من يدعون للسلام.. ولهذا يغرقون عيونهم بالظلام.. لقد كنت مبصراً.. وبمجرد أن قلت: «وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو» حطت على عيني جرادتان.. لكني أحمد الله أنك بجواري الآن.

قال المجنون: وأنا منذ صغري قد أحببتك.. وبالتأكيد فإني الآن قد عرفتك.. أنت الشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى.. وقد تحولت من مبصر إلى أعمى لمجرد أنك جئت إلى هذا العصر.. فداهمك ما فيه من شر.. وصرخ المجنون: يا ناس.. يا من فقدتم الإحساس..زهير بن أبي سلمى.. تحول من مبصر إلى أعمى!..

obeikandl.com

٢٣

المجنون يصعد إلى الجبل .. بعد أن تعلق بحبل الأمل

اليائسون وحدهم يغرقون.. وإذا قابلوا أعداءهم فإنهم يستسلمون.. ولذا فإنهم يرضون بحياة الذل.. ويرون أنها أسهل حل.. أما الذين يعشقون الكرامة.. فإنهم يسيرون في سكة السلامة.. وحتى إذا قتلهم الأعداء.. فإنهم يموتون ميتة الشرفاء.. بهذه الروح الأبية.. أخذ المجنون يصرخ في البرية.. ثم تعلق بحبل الأمل.. وأخذ يصعد الجبل.. بعد أن اصطحب معه زهير بن أبي سلمى.. الذي تحول من مبصر إلى أعمى.. وعندما وصل الاثنان إلى القمة.. قال زهير: ما أعظم الهمة.. أما المجنون فقال بعد أن تبسم: هناك بالطبع فارق بين القمم.. فهناك قمم. لا تورث إلا السقم.. وإذا تكررت فإنها تصيب الناس بالسأم.. وهناك قمم.. لا يتلاقى فيها إلا أصحاب الهمم.. لكي يواجهوا الظلم إذا احتدم.. وليس لكي يبرئوا الذمم.

فجأة.. هبت رياح غاضبة.. كي تنذر الأشجار المترهلة الخائبة.. بأنها ستقلعها دون إشفاق أو رحمة..لأن العشاق لم يجنوا منها سوى صدمة بعد صدمة.. ولأن الأرض العربية.. لم تعد تقبل حركاتها الاستعراضية.. وظلت الرياح تحتد وتشتد.. وعلى كل الصحارى والوديان تمتد.. وفي تلك الأثناء.. جلجل في كل الأرجاء.. صوت شاعر عبقري.. يقول لكل إنسان عربي:

يسقط الخائب الحبان مهانا
حين يُرضى بجبنه الأوثانا
ويظن الخنوع طوق نجاة
وقيود العدا ندى وحنانا
هاهو الحق خيمة في خلاء
والأفاعي تطل.. والسم بانا
والجراد اللعين ينضح شراً
والخفافيش تقهر الأغصانا
مَن أنادي – يا رب – هل من سميع
فالأذلاء أغلقوا الآذانا
حين يصحو الإباء في كل قلب
عربي.. يواجه الطوفانا
تشرق الشمس عندنا من جديد
تصبح الأرض كلها مهرجانا
«وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العار أن تموت جبانا»

رفع زهير بن أبي سلمى رأسه.. وقال كمن يحدث نفسه.. معنى هذا أن الأرض العربية.. تواجه أخطاراً دموية..نتيجة للأطماع الأجنبية.. ونتيجة لأن النفوس الأبية.. مبعثرة كأنها أشلاء شظية.. يا للعجب.. إلى متى يظل العرب.. منقسمين على أنفسهم دون سبب. ألم يدركوا – بعد – أن الدنيا لمن غلب.. ألم يعرفوا أن الثعالب.. تحيط بهم من كل جانب.. وتستفيد من تفرقهم في كل خطوة.. وأن الحق دون قوة.. مثل المرأة الجميلة الطاهرة.. تتخطفها الأيادي الفاجرة.. ولهذا لابد أن يحميه فرس نبيل..

يجنبها البكاء والعويل.. ويدفعها لأن تعشق الحياة.. دون أن تطلق صرخة: آه. لعلك تتذكر يا مجنون.. أني قد قلت منذ عدة قرون:

ومن يبعد الطوفان عن خصب أرضه

يكرم.. ومن لا يتق اللطم يلطم

ومن لا يذد عن حقه بسلاحه

يحقر.. ومن لا يقبل الظلم يعظم

كانت الريح ما تزال تحتد وتشتد.. لكن المجنون نسي ما كان يحس به من برد.. لأن زهير بن أبي سلمى ذكره بسنوات العنفوان والمجد.. أما زهير نفسه فقد تنهد عدة مرات.. وقال:يبدو لي أن الأرض حبلى بالمفاجآت.. إني مؤمن بأن الطوفان مهما يحتدم.. لابد له أن ينهزم.. ولقد كنت أدعو دائماً للسلم.. لكن السلم لا ينسجم مع الظلم.. وإذا كنت قد فقدت نور عيني.. فإني أسمع جيداً بكلتا أذني.. إني أسمع أصواتاً بعيدة لكنها قوية.. تقول بكل حماسة وحيوية.. لا.. للحرب.. نعم للسلم والحب..

فرح المجنون بهذه الأصوات.. لكنه سرعان ما أطلق آهات.. فقد كان يتمنى أن تكون هذه الأصوات أصواتاً عربية.. أو على الأقل أن تمتزج الأصوات العربية.. بأصوات الآخرين من بني الإنسانية..

ربما تَحُولُ الأصوات البعيدة.. دون وقوع المكيدة.. هذا ما يتمناه المجنون.. وما يتمناه معه آخرون كثيرون.. من بينهم زهير بن أبي سلمى.. رغم أنه تحول من مبصر إلى أعمى.. وعلى العموم فإن المجنون يفكر الآن في طريقة.. تعيد لزهير البصر لكي يرى شمس الحقيقة.

obeikandl.com

٢٤

الإمبراطور طائش بن راعش.. يقتلع الحشائش ويرتكب الفواحش

قال المجنون لنفسه إن «المؤمن القوي خير من الضعيف».. وإن من يرى يميز بين العقربة والرغيف.. كما يستطيع بالطبع أن يميز بين الأصدقاء.. وبين سواهم ممن يواجهونه بالعداء.. لهذا رفض المجنون استسلام زهير بن أبي سلمى.. لواقع أنه قد أصبح أعمى.. فاصطحبه بكل هدوء وروية..إلى إحدى العيادات الطبية.. ودخل معه إلى غرفة عليها ستائر مسدلة.. وفيها أكد رجل يرتدي «بالطو» أبيض أنه سيحل المشكلة.. وبدأ عمله باسم الله.. ثم أمسك جهاز ليزر بكل انتباه.. وأخذ يحركه من اتجاه لاتجاه.. وبعد دقائق قليلة..نهض زهير بن أبي سلمى بقامته الجليلة.. وتحققت معجزة العلم الحديث.. بشكل فعال وحثيث.. حيث هتف زهير بصوت فرحان.. الآن –والحمد لله – لم أعد من العميان.

في الفجر تتراقص النسمات الجميلة.. وتطير الطيور من خميلة إلى خميلة.. ويصحو من النوم الناس.. رغم اختلاف الألوان والعقائد والأجناس.. لكي يستقبلوا الحياة بكل حب.. متمنين أن تظل الأرض لهم واحات خصب.. وأن تختفي من أجوائها أشباح الرعب.. لكن الفجر الجديد الذي أطل.. كان له مذاق الخل.. فقد ترددت فيه صيحات منذرة بالويل.. فصرخ زهير: ما هذا الذي أراه؟.. النار تندفع من كل اتجاه.. والغربان لا تكف عن النعيق..

ورياح الشر تجتاح الطريق.. انظر يا مجنون إلى السماء.. إني أرى أشباحاً سوداء.. تتلذذ بسفك الدماء.. آه.. أكاد أصاب بالحمى.. يا ليتني بقيت أعمى!

رغم اشتداد العاصفة القاصفة.. ورغم تأرجح أصحاب القلوب الخائفة.. ترددت بكل قوة.. كلمات أعادت المجنون إلى زمن المجد والفتوة.. فامتلأ قلبه بالحماسة والنشوة.. وبلحن السنباطي وصوت أم كلثوم.. انزاحت من القلب الهموم:

بغداد يا قلعة الأسود

يا كعبة المجد والخلود ... يا جبهة الشمس للوجود

سمعت في فجرك الوليد ... توهج النار في القيود

وبيرق النصر من جديد ... يعود في ساحة الرشيد

بغداد يا قلعة الأسود

قد آذن الله في علاه ... أن ينهض الشرق من كراه

ويرحل الليل من سماه

وتسطع الشمس من جديد ... من أمسنا الثائر البعيد

بغداد يا قلعة الأسود

.. ترقرقت على خدي زهير قطرات دموع.. وقال: لا ينبغي على الإنسان الركوع.. إلا إلى الله وحده.. فهو هازم الشيطان وحده.. وهو الذي يرسل جنده.. وبعد قليل طرح زهير أقسى سؤال: ما الذي أوصل العرب إلى هذا الحال؟.. وفي الحال تنحنح ثم قال:

«وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غد عمي

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه

ومن لا يكرم نفسه لا يُكرم»

لم يشأ المجنون التعليق أو الإجابة.. حتى لا تغزوه سحب الكآبة.. فهو يدرك أن الحال لا يسر.. بعد أن مزج التزييف الخير بالشر.. وبعد أن استكان كل ذليل تابع.. لما

يقرره أصحاب المطامع.. لدرجة أن أحد الجبناء البلداء.. أخذ يستجدي الطامعين اللؤماء.. منذ أن وعدهم بأن يتحول من إنسان إلى فأر.. ينام قانعاً في أعماق الجحر دون أن يميز الإنسان العبد من الحر.

التفتْ على زهير بن أبي سلمى أفعى الظنون.. فطلب من المجنون.. أن يشرح له ما كان وما قد يكون.. وهنا صرخ المجنون:

الجبن ينخر دنيانا مع الكذبِ

فاحرس ضميرك واحمل راية الغضبِ

وقل لمن جبنوا لم يبق من أمل

يحيا به الناس مذ داسوا لمغتصب

.. من كل الاتجاهات.. ترددت أصداء.. كلها تؤكد أن طه فان الطغيان يهدد إنسانية الإنسان.. في كل زمان ومكان . ولكي ينجح الناس في صد الطوفان لابد أن يدركوا معنى الكرامة.. وأن يتحولوا من الجبن إلى الشهامة.. أما إذا ظلوا جبناء.. ورضوا بأن يعيشوا أذلاء.. فإن الطاووس الذي يمشي بحيلاء.. وينظر للناس باحتقار وازدراء.. وهو الإمبراطور طائش بن راعش.. سيظل يقتلع الخضرة والحشائش.. ويرتكب ما يرتكب من فواحش.

obeikandl.com

٢٥

الجواهري والسياب والمجنون .. يستجوبون الغزاة الذين يؤسرون

فجأة وجد المجنون نفسه في قلب مدينة البصرة.. لكنه لا يتذكر بأية وسيلة أو بأية حيلة استطاع الوصول إليها.. ربما ببساط الريح وصل.. وربما طار إليها بجناح الأمل.. تحدرت على خديه عبرات.. لأنه كان مشتاقاً للقيا البصرة منذ سنوات.. وها هو الآن يعود.. ويتذكر كيف استقبله أهلها من قبل بالورود.. هو وغيره من الشعراء.. وقتها كانت الأرض ترتوي بالمطر وبالدماء.

اهتزت أعصاب المجنون.. لأنه شاهد شياطين الحمق الملعون.. تعربد في أرجاء السماء.. وبعدها يسقط على الأرض ضحايا أبرياء.. لكنه سرعان ما استطاع أن يتوازن.. لأنه وجد كل إنسان مع غيره يتضامن.. وأخذ المجنون يتجول . يتمهل أحياناً، وأحياناً يتعجل.. وتعجب حين رأى الناس يملأون الشوارع.. رغم كل ما ترتكبه الشياطين من فظائع.

★ يجب أن نتحرك يا أستاذ.. لا لكي نبحث عن ملاذ.. وإنما لكي نساهم في الإنقاذ.

- أنا دائماً لا أتأخر.. رغم أني في العمر منك أكبر.. أنسيت أني من النجف الأشرف.. وأني دائماً للفداء أتشوق وأتشوف؟

★ يا أستاذ.. إني أعرف قدرك.. وأعشق من كل قلبي شعرك.. لكن لابد أن نتحرك بسرعة من أجل البصرة.. لكي تظل قلعة عربية تحتضن الشعر والثورة.

.. استمع المجنون بانتباه.. وعلى الفور تحركت قدماه.. وأخذ يقترب من الرجلين.. بعد أن أدرك أنهما لابد أن يكونا شاعرين عراقيين.. وبعد أن اقترب منهما أكثر.. أدرك أن المفاجأة قد أصبحت أكبر.. حيث عرف أن الأستاذ هو شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري.. وأن من معه هو بدر شاكر السياب.

★ السلام عليكما أيها الشاعران الكبيران.. واعذراني إذا قلت إني منذهش من وجودكما الآن.. فما أعرفه أن أكبركما يرقد في دمشق، قرب مسجد السيدة زينب.. وأما أنت فمن المفروض أنك ترقد في مقبرة الزبير بالبصرة.

قال الجواهري وهو يعدل طاقيته الشهيرة:

- وعليكم السلام.. وإن كان السلام الآن غير موجود.. بسبب «العلوج» الذين تخطوا الحدود.. وجهك ليس بغريب.. لقد التقيت معك في مصر وفي قطر.. والآن أراك في البصرة.. ولكن لماذا تسير بغير سلاح.. لابد من السلاح لكي يتحقق النجاح في الكفاح.. خذ هذه البندقية.. وجرب أن تستخدمها ضد الوحوش الأجنبية. فرغم أني أكبر منكما فإني أحمل بندقيتين.. وكنت أنوي إعطاء واحدة لأول من تراه العين.. وها أنت أمامي.

هبط على الأرض كائن خفي.. له جسد مراوغ زئبقي.. أما الوجه فهو وجه غراب.. ودون أن يراه الجواهري والسياب.. همس في أذن الجواهري: إنك تقف مع مسلم سني.. وهمس في أذن السياب: أنت تتحدث مع مسلم شيعي.. وحين اقترب الكائن من المجنون، صفعه المجنون على قفاه.. فاندهش الجواهري والسياب مما شاهداه.. وسألا المجنون لماذا تحركت يداه.. فقال لهما: كنت أصفع الشيطان الأكبر.. لأنه ينفث السم ويتصور.. أنه لا يمكن أن يُقهر.

دوت على الأرض أصوات انفجارات.. وتهدمت بعدها بعض البيوت والمحلات.. فتعالت من كل القلوب تكبيرات.. الله أكبر.. الله أكبر.

الله أكبر فوق كيد المعتدي

والله للمظلوم خير مؤيد

قولوا معي.. قولوا معي..

الله أكبر فوق كيد المعتدي

ومن أرض لبنان.. حملت الريح صوتاً قوياً يرفض الخنوع والإذعان.. ويطالب العرب بالتصدي للطوفان.. وأخذت جوليا بطرس تصيح.. ويتردد صوتها في الفضاء الجريح!

«وين الشعب العربي.. وين؟

الغضب العربي.. وين؟

الشرف العربي.. وين؟

اللي جوه الضلوع

أقوى من الدروع»

تحرك الجواهري والسياب والمجنون.. بعد أن أقسموا أن تظل البصرة.. قلعة عربية حرة.. تحتضن الشعر والثورة.. وأخذ الجواهري يردد ما يحفظه من شعر المتنبي:

«على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم»

صرخ السياب بحزن مكسو بالغضب.. يا أستاذ.. أين هم العرب؟.. ثم تنهد وهو ينظر للمجنون.. لاعناً في العلن كل من يخون:

«إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده؟

إن خان معنى أن يكون..

فكيف يمكن أن يكون؟

الشمس أجمل في بلادي من سواها والظلام

حتى الظلام أراه أجمل فهو يحتضن العراق

.. الريح تصرخ بي: عراق

والموج يعول بي: عراق.. عراق.. ليس سوى عراق»

وهنا قال المجنون للسياب.. أرجو أن تنسى الخونة والأذناب.. وتذكر أن هناك فرقاً بين العرب والأعراب.. وأن الخطر الوحشي يدق على الأبواب.. وعلى الفور قال الأستاذ:

حييت شعبك في حرب فحييني

يا دجلة المجد.. يا أم الميامين

حييت شعبك مقداماً يؤازره

جند من الله في وجه الشياطين

إني رأيت علوج الشبر ساقطة

في الناصرية.. هذا المجد يكفيني

.. اندهش المجنون وقال للأستاذ: يا أستاذ.. ماذا جرى في الناصرية؟.. إنها مدينة أصدقاء كثيرين لي من ذوي الهمة والحمية..طمئني.. أرجوك.. حتى لا تنغرس في صدري الشكوك.. قال الجواهري وهو يحتدم: الله على الناصرية.. فقد كنت في كربلاء قبلها بقليل.. حيث قابلت الفلاح العراقي الأصيل.. علي عبيد منقاش.. إنه لم يكن يحمل المدفع الرشاش.. وإنما بندقية قديمة.. ومع هذا فإنه أسقط بها أداة من أدوات الجريمة. وارتفع صوت الجواهري وهو يقول: علي عبيد منقاش أسقط طائرة أباتشي...قال لي حين قابلته لأحييه.. أتعرف أني كنت أحب أطباق الدولمة والمحشي.. أما الآن فإني أصبحت أتذوق أطباق الأباتشي!

وقال السياب للمجنون: ألا تعرف أيضاً ميسون؟.. إنها امرأة عراقية عظيمة.. وقد تصدت بـ «الآر. بي. جيه».. لأداة أخرى من أدوات الجريمة.. ميسون حميد عبد الله.. دمرت بعون من الله.. عربة مدرعة من عربات الغزاة.. وقالت لمن فيها وهم يهربون في كل اتجاه.. سترون يا أوغاد.. كيف ستستقبلكم بغداد.. وكل شبر من أرض البلاد.

أضاف الجواهري بسرعة: هناك عاصفة قاصفة.. أسقطت من الأباتشي اثنتين.. في أقل من غمضة عين.. كأنها تقول: ما بين غمضة عين وانتباهتها.. يغير الله من حال إلى حال.. فلنشكر الله تعالى.. ولنقرأ ما قاله سبحانه.. «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من

سجيل، فجعلهم كعصف مأكول».. صدق الله العلي العظيم.

مرة ثانية.. تحرك الجواهري والسياب والمجنون.. لكي ينظروا في عيون الذين جاءوا يغزون.. لكنهم وقعوا في الأسر.. فأدركوا أنهم ضحايا ما في قلوب قادتهم من غدر.. وما تمتلىء به عقولهم من شر.

قال الجواهري بصوت يحاول أن يتسامح: كيف الحال يا حضرات الأسرى شعب العراق سيعاملكم أولاً بسماحة الإسلام.. لن يطبق عليكم ما تستحقونه من إعدام. وهذا ما قاله وزير الإعلام.. محمد سعيد الصحاف.. فأرجو ألا يرتعد أحد منكم أو يخاف.. ولكني أسألكم: لماذا جئتم إلى العراق.. هل تصورتم أننا سنستقبلكم بالعناق؟

رد أحد الأسرى وهو يطأطيء رأسه من الذل.. نعرف أن لديكم الياسمين والفل.. لكنكم لا تهدونه إلا لمن يستحق..ونحن بالطبع لا نستحق.. والحقيقة أن قادتنا قد ضللونا.. فجاء أبناء العراق وأسرونا.

★ هل قدموا لكم الشراب والطعام؟

– نعم.. لكنهم رفضوا التحية والسلام!

★ لأنكم حاولتم أن تقدموا لهم الشر.. فكان أن سقطتم في الأسر.. وسنعيدكم لإمبراطوريتكم بعد أن يتحقق لنا النصر.

عاد الجواهري والسياب إلى البصرة.. إلى القلعة الأبية العربية الحرة.. أما المجنون فقد قبّل كلاً منهما وعاد.. ليتابع أخبار تضحيات بغداد.. ورغم أن الجو تسكنه الغيوم. فإنه طرب عندما تهادى إليه صوت أم كلثوم:

بغداد يا قلعة الأسود ... يا كعبة المجد والخلود

يا جبهة الشمس للوجود ... سمعت في فجرك الوليد

توهج النار في القيود ... وبيرق النصر من جديد

يعود في ساحة الرشيد ... بغداد يا قلعة الأسود

obeikandl.com

٢٦

ميسون .. تصافح باليمني المجنون .. وتقاتل باليسرى نيرون

تتكفل الشدائد بأن تفرز المواقف.. وتوضح الفرق بين الشجاع والخائف.. وبها يتميز الأصلي من الزائف.. ومن قديم الدهر.. يظل الخير يواجه الشر..وخلال المواجهة قد يحدث كر أو فر.. لكن الإنسان الصادق.. يظل واقفاً مع الخير بقلب واثق.. أما الإنسان النذل الخائن.. فإنه ينتظر أن يكافئه الشر على موقفه الشائن.

قال زهير بن أبي سلمى.. بعد أن شفاه الله من الحُمَّى.. يا مجنون.. من هو الإمبراطور طائش بن راعش.. الذي يقتلع الخضرة والحشائش.. ويرتكب ما يرتكب من فواحش؟.. ورد المجنون على الفور: .. إنه زعيم أكبر عصابات الشر..وهو يحمل أسماء عديدة.. لكنها في كل الأحوال ليست مفيدة.. فالناس عادة يبحثون عن الجوهر وليس عن الاسم أو المظهر.. فهو – أحياناً «نيرون».. وهو – أحياناً يتسمى «هولاكو» الجديد.. وأحياناً يقال له «الحجاج بن يوسف المبيد».. ويقال له أحياناً «هتلر».. وأحياناً هو «شانك الأبتر».. ومن أسمائه الأخرى «ترومان».. وقد سمي بهذا الاسم بعد العدوان.. على المدنيين في اليابان.. حيث ألقى عليهم قنبلتين ذريتين.. فدمر «هيروشيما» و«نجازاكي» في غمضة عين.. والغريب أن «طائش».. لم يتعظ لما جرى لأبيه «راعش».. فقد فَقَدَ أبوه الذاكرة.. ولم يعد يميز بين الوجوه الحاضرة.

استأذن المجنون من زهير ليذهب وحده إلى أرض الشموخ.. في «سوق الشيوخ».. وبمجرد أن وصل وجد كثيرين من الشبان والشابات.. من العراقيين والعراقيات.. يصدون أسراباً حقيرة من الجراد.. لكي يمنعوها من التهام موسم الحصاد..ووجد المجنون نفسه أمام فتاة عراقية.. يشع من عينيها وميض الحماسة والحمية.. فأدرك على الفور أنها فدائية.. ومدت الفتاة يدها اليمنى للمجنون.. وقالت: سأقدم لك الشاي بعد أن أقضي على جراد «نيرون».. وتقدمت في الحال.. لتتصدى لما أمامها من «أرتال».. حيث أطلقت بيدها اليسرى قذيفة على «دبابة».. ورأى المجنون كيف تحولت «الدبابة» إلى «ذبابة».. كما رأى كيف احترق الجراد.. بعد أن وفق الله بالسداد.. وهتف المجنون مع المقاتلين والمقاتلات..من الأماجد والماجدات.. الله أكبر.. الله أكبر.. على من طغى وتجبر.. وتذكر المجنون من جديد.. ما قاله له الجواهري بصوته الرائع الفريد:

حييتُ «شعبك في حرب» فحييني

يا دجلة «المجد.. يا أم الميامين»

حييت «شعبك مقداماً يؤازره

جند من الله في وجه الشياطين

إني رأيت «علوج» الشر ساقطة

في الناصرية، هذا المجد يكفيني

.. تحرك أحد الصحفيين العرب.. ومن المجنون اقترب.. وسأله عن «علوج» التي لا يعرف لها معنى.. وقال: إن كنت تعرف المعنى.. فزدنا.. وأفدنا.. فأجابه المجنون بأن «العلج» هو «الأعجمي الكافر».. وأن «العلج» الآن هو «الأجنبي العنصري الغادر».. لأنه «يأتي إلى أرض ليست له.. ويستحل لنفسه ما ليس له..».. ورغم كثافة الطلقات النارية.. تعالت في الفضاء طلقات أخرى عالية.. وعاد صوت الجواهري من جديد.. لكي يرتوي منه من يتعطش للمزيد:

أرض الشموخ هنا «سوق الشيوخ» أنا

ميسون تهدم أوكار الثعابين

ميســـون باركهـــا الـــه العـــلي بمـــا

ســـعت لـــه في ملاقـــاة الملاعـــين

ميســـون وردتنـــا الحمـــراء ماضـــية

نحو الفداء ورغـم المـوت تحيينـي

في كـــــربلاء وفي أرض الفـــــرات دم

يروي حصاداً لنصـر سـوف يـأتيني

الشـــعب ملـــتحم في ظـــل رايتـــه

والأرض تعلن: هـذا الحـر يحمينـي

هـــل ينكـــر الجبنـــاء الآن أن دمـــاً

يعلـــو إلى الله يروينـــي ليفـــديني؟

الجـبن مقبـــرة الأوغـــاد في غـــدهم

والنصـر للحـق في أرض البـراكين

.. تعجب الصحفيون.. وما زالوا يتعجبون.. كيف استطاعت ميسون.. أن تصافح بيدها اليمنى المجنون.. بينما تقاتل باليسرى نيرون.. وقال أحدهم إن شعب العراق لن يموت.. رغم ما يقوم به نيرون من قتل للمدنيين وهم نيام في البيوت.. ورغم ما يقوم به الجبناء من سكوت.. وشاهد الصحفيون.. ومعهم شاهد المجنون.. قوافل من العراقيات.. كلهن فدائيات.. وجميعهن «ميسونات».. فكرر المجنون من جديد.. ما كان الجواهري قد قاله بصوته الرائع الفريد:

إني رأيـت «علـوج» الشـر سـاقطة

في الناصرية، هذا المجد يكفيني

obeikandl.com

٢٧

المتنبي يتصدى للبراكين والحمم .. وخوفو يخرج من الهرم

بعد أذان صلاة العصر.. أخذ المجنون يتمشى قرب أهرامات مصر.. وهو يتأمل ما يحدث في كل عصر.. من هزائم ليس لها حد.. أو انتصارات مرصعة بالمجد.. وحين اقترب المجنون من أحد باعة الصحف.. استنشق رائحة أمطرته بالغثيان والقرف.. فوقف قليلاً ويا ليته ما وقف.. حيث قرأ العناوين.. وأدرك أنها لا تمدح غير الجبناء التافهين.. وبعد مشي متمهل طويل.. تقدم من المجنون شاب نحيل.. حيث أعطاه جريدة ممنوعة.. اسمها جريدة الحرية المقموعة.. وظل المجنون يقلب الصفحات.. وعرف أن ما سمعه ليس إشاعات.. فقد خرج الملك خوفو من الهرم.. لكي يحاسب كل من في مصر قد حكم.. ويعاقب كل من خان أو انهار أو انهزم.. ويكافئ الثوار على امتداد العصور.. ممن أحسوا بمعاناة الكادح والمقهور.. وأضاءوا زمانهم بالعلم والإيمان والنور.

تحت أحد أعمدة النور.. قرأ المجنون عدة سطور.. تتحدث عن خروج خوفو من الهرم.. وكيف أنه أحس بقدر من الندم.. لأنه خرج متخفياً من مكانه.. دون أن يودع أحداً من أهل زمانه.

.. خوفو مضى متخبطاً في ليله.. متسائلاً: هل هذه مصر التي أحببتها؟.. أم أنني أخطأت حين مشيت وحدي فانطلقت إلى بلاد

غيرها؟.. أم أنه البصر الكليل بفعل آلاف السنين الضائعات؟.. وكيف يأتي الآن في الليل الدليل؟.. وإن أتاني ما عساه يقول؟.. ليست هذه مصر التي أحببتها.. وهوى على الأرض الذليلة غاضباً.. فتشققت.. وتشبثت – من عارها – ببهاء روح غاربة..

تحرك المجنون بسرعة غير معهودة.. وخلال دقائق معدودة.. وجد نفسه واقفاً أمام رجل عملاق.. يتساءل لماذا احتجب النور في الآفاق.. ولماذا تظل الصرخة محبوسة في الأعماق؟.. ومن هيئته الفرعونية.. وملابسه القصيرة العسكرية.. أدرك المجنون أنه أمام خوفو العظيم.. فانحنى ليقدم له التحية والتعظيم.. لكن خوفو استوقفه في الحال.. وقال له: لا تفعل إلا ما يفعله الرجال.. لقد خرجت من الهرم.. لا لكي أبعد عن نفسي السأم.. ولكن لأن رجلاً من أصحاب الهمم.. جاء ليوقظني طالباً مني أن أقف إلى جواره.. ضد الشياطين التي تسللت إلى دياره.. ولهذا تراني الآن. أفكر كيف أساعده في صد العدوان.. حتى لو كان من الشيطان الأكبر.. الذي عرفت أنه قد طغى وتجبر.

★ أيها الملك الجليل.. كيف تساعده وكل من حوله جبان أو مهان أو ذليل؟

– إذن.. فأن تعرف هذا الرجل.

★ لست متأكداً.. ولكن ربما عرفته.. لو أنني كنت قد رأيته.

– على كل حال، فإنه ينتمي لحضارة عريقة.. تماماً مثل حضارتنا الفرعونية العتيقة.. فهو أحد أحفاد بابل وآشور.. وهو من صناع الحضارة العربية التي غمرت الدنيا بالنور.

بينما كان خوفو والمجنون يتحاوران. جلجل في الآفاق صوت عربي رنان.. يهجو كل ذليل وتابع مهان.. ويؤكد أن شجاعة الشجعان.. أساس العمل في كل ميدان:

«عيد بأية حال عدت يا عيد»

والعزم مفتقد والجبن موجودُ

كافور يا أجبن الفرسان قاطبة

أنت الذليل وفي الميدان مفقودُ

أنت الذي يُضحك الأطفال منظره

فالوجه ضفدعة والحلق مسدودُ

لولاك ما رقدتْ مصر التي سهرت

عبر الزمان وفيها العلم مشهودُ

لولاك ما ارتكب الطاغي جرائمه

ولا تغلغل في أحلامنا دودُ

إني أراك غريقاً في ضحالته

والخزي في وجهك المفضوح أخدودُ

.. أوشك المجنون على البكاء.. فاحتضنه خوفو دون إبطاء.. وسأله عما جرى.. فأنبأه بما كان قد درى.. وقال له إنه يعرف صاحب الصوت. ولا يتردد أحد في ذكره كل وقت.. فهو أكبر شعراء اللغة العربية.. وهو وريث الحضارتين الآشورية والسومرية.. وهو أبو الطيب المتنبي الأشم. الذي تتساقط على أرض وطنه البراكين والحمم. وهنا اكتسى وجه خوفو بالألم. وقال للمجنون ماذا أفعل الآن؟.. هل أعود من زمانك إلى ما كان. وأرجع من حيث جئت.. أم ينبغي أن أجيب صاحب الصوت؟.. أعتقد جازماً أنه لابد من الإجابة.. حتى تتبدد سحابة الكآبة.

obeikandl.com

٢٨

لكل زلزال توابع .. ولكل زمان أفراح وفواجع

يفاجأ الناس بوقوع الزلازل.. حيث تنهار البيوت وتتصدع المنازل.. ويطل الخراب بوجهه المشؤوم.. ويلقى الضحايا مصيرهم المحتوم.. ولكل زلزال توابع.. لا يستطيع أن يردعها أي رادع.. أو يمنعها أي مانع..وحين يفيق الناس من الصدمة.. ينطلقون بكل ما لديهم من همة.. لكي يعيدوا بناء ما تهدم.. ويساعدوا من سقط على الأرض أو تخبط وتألم.. لأن نهر الحياة لا يتوقف عن الجريان.. والأرض ذاتها لا تكف عن الدوران.. بينما تتعاقب على كل إنسان.. أفراح وأحزان.. وهي نفسها التي تتعاقب على الشعوب والأوطان.

يعرف المجنون أن المفاجآت.. يمكن أن تزلزل كل التوقعات.. وطالما أن البحر هائج.. فإنه قد يخفي ما يخفي من نتائج.. ولكن يبقى على الربان الماهر.. أن يظل يناور.. دون أن يتلهى بالمصائر.. حتى لا يبدو في هيئة مقامر.. وبالتأكيد فإن السفينة.. لابد أن تكون في أيد أمينة.. حتى يكتب الله لها السلامة.. دون أن يشرب أحد كأس الندامة.

سفينة «الأندلس» لم تكن مصنوعة من ورق.. لكن الطيش والتفرق والنزق.. أفضت بها في الخاتمة إلى الغرق.. ولم يبق من السفينة التي كانت رائعة.. إلا ما يتبقى من أية فاجعة.. صرخات مذعورة أو خائفة.. ونبرات حزن آسفة:

«لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول

من سره زمن ساءته أزمان

فجائع الدهر أنواع منوعة

وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها

وما لما حل بالإسلام سلوان»

.. نظر المجنون للبحر بقلب حزين.. لكنه وجد سفينة أخرى تواجه الموج ولا تستكين.. فأدرك على الفور أنها سفينة «فلسطين».. لأن ركابها أجمعين.. يبدون متضامنين.. وهذا ما أغاظ «القرش» اللعين.. وهنا تردد صوت شاعر شهيد.. يؤكد ما سبق أن قاله ويعيد:

«سأحمل روحي على راحتي

وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق

وإما ممات يغيظ العدى

ونفس الشريف لها غايتان

ورود المنايا ونيل المنى

لعمرك إني أرى مصرعي

ولكن أغذ إليه الخطى

أرى مصرعي دون حقي السليب

ودون بلادي هو المبتغى»

وبينما أخذ المجنون يتأمل صراع الخير والشر.. أفاق على صوت رجل حر.. يبدو من نبرته أنه ليس من أبناء هذا العصر.. ولأن الظلام شديد.. لم يلمح سوى شبح بعيد.. ينادي وما من مجيب.. وتتداخل في صرخته العزة مع النحيب:

تحاصـــرني الأحـــزان والليـــل يمتـــدُ

وطوفـــان هولاكـــو يعـــود فيشـــتدُ

أبعـــد انتظـــاري للنهـــار مؤرقـــاً

أرى الشمس لم تشرق بما وَعَدَ الوعدُ

أرى جـــرح عشـــتار الأبيـــة صـــامتاً

وفي صـمته حـزن طغـى مـا لـه حـد

«ومـن نكـد الـدنيا» عـلى النـاس أن يـروا

عـــدواً لهـــم مـــا مـــن إطاعتـــه بـــد

ولكنتـــــي أدري بـــــأن قلـــــوبهم

بـرغم المآسـي سـوف تصـحو وتحتـد

ســأبقى أنــادي فــوق أنقــاض منــزلي

ويـــأتي زمـــان لـــيس يبنيـــه مرتـــد

إذا كنـــت مفجوعـــاً فـــإن فجيعتـــي

سـتحرق أوهـــام المســـوخ وتمتـــد

تنبه المجنون أن المتنبي هو الذي يصيح.. وأن صوته يتردد في الفضاء الفسيح.. لكن الصوت لم يعد ينفذ إلى القلوب.. لأن تجار المآسي والحروب.. يتاجرون بأوجاع الشعوب.. وهنا تعالى صراخ المجنون.. وقال بصوت محزون:

- أيها الشاعر العملاق.. يا من يتردد صوته في كل الآفاق.. كيف عدت من جديد؟.. ولماذا أنت شارد ووحيد؟

لك أن تتخيل ما تشاء..لكني في الحقيقة لم أعد إلى عالم الأحياء.. إلا لكي أقول.. إني عشت حياتي أصول وأجول.. وقد ظللت أقاتل.. ولم يكن معي أحد سوى قلبي المناضل.. وقد قتلتني عصابة الشر.. بعد أن ساندتها الخيانة وساعدها الغدر.. لكني مؤمن بقدوم يوم.. سيتزاح فيه الغم والهم.

obeikandl.com

٢٩

لامية الفرات ... ترفض اليأس والسبات.. وتدعو الثوار للثبات

بصاروخه العابر للزمان.. انطلق المجنون رافعاً راية العصيان.. ضد أشباه الرجال والخصيان.. حتى يتطهر الهواء من رائحة اليأس والخذلان.. واصطحب المجنون معه بوصلة منقولة جواً.. لكي تعينه إذا تاه قصداً أو سهواً.. وتقدم له خدمة مجانية.. تساعده على فهم الأهواء الإنسانية.. خصوصاً أنها تضم أنباء أبناء الزمان.. ممن يحبون الخير للإنسان.. أو ممن يتلذذون بالعدوان.. ونشر الأحقاد والأضغان.. في كل الدول والأوطان.

في قلب الزمن النائي.. سمع المجنون أناساً يتحدثون عن رجل يدعى «الطغرائي».. وقالوا إنه يفوق كل من في العصر.. بإجادته للشعر.. وإتقانه لفنون النثر.. فضلاً عن كونه خبيراً بملامح الخير وأشكال الشر.. فنظر المجنون للبوصلة التي في يده.. ليعرف تفاصيل نشأته ومولده.. وفي أي مدينة كان.. فعرف أن الطغرائي قد ولد في أصفهان.. سنة ٤٥٣ هجرية.. وأنه من أسرة عريقة عربية.. وأما مهنته فهي العمل في دواوين الطغراء.. وهي الطرة التي يكتبها – عادة – رئيس ديوان الإنشاء.. حيث تكتب في أعلى الرسائل بخط غليظ.. يسر القارئ ولا يغيظ.. وفيها صفات وألقاب للحاكم أو السلطان.. كما جرت العادة في ذلك الزمان.

فجأة وجد المجنون نفسه أمام رجل مهيب الطلعة.. يرتدي

عمامة ليخفي الشيب أو الصلعة.. وكان الرجل في حالة استغراق.. ووجهه يفيض بالإشراق.. وهو يؤكد أن العمل.. هو الأساس في بناء أي أمل:

«أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ

وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني

بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد

كالسيف عري متناه عن الخلل

فلا صديق إليه مشتكى حزني

ولا أنيس إليه منتهى جذلي»

.. اندفع المجنون نحو الرجل.. وقال له بثقة ودون وجل:

★ يا سيدي.. لقد عرفتك.. وأعترف بأني منذ زمان قد أحببتك.. أنت الطغرائي.. شاعر كبير من شعراء الزمن النائي!

- هذا صحيح.. ولكن من أنت أيها الفتى !الذي يبدو أن قلبه جريح؟

★ أنا لست فتى وإنما عجوز.. وأعرف ما يجوز وما لا يجوز.. وقد هربت من زماني لبعض الوقت.. حتى أبتعد ولو قليلاً عن جبن الصمت.. فالطغيان في زماني قد اشتد.. لكني لم أجد من يقف ضده أو يحتد.. فالكل قد شرب كأس اليأس.. ولم يعد أحد يرفع رأسه تحت الشمس.

- هذا أمر يدعو للعجب.. ففي زماني قد جرى مثل هذا للعرب.. وهناك من باعوا الضمائر.. وهناك أيضاً من كانوا أجمل العلامات والمنائر.. وأعترف لك بأني شخصياً قد أحببت الصمت.. ولكن لبعض الوقت.. وذلك لكي تتوازن النفس.. وتنفض عنها غبار اليأس.. وقد سجلت ما قلته في «لامية العجم».. وهي قصيدة يختلط فيها العزم بالألم.

★ يا سيدي.. في زمان قبل زمانك.. ومكانٍ غير مكانك.. كتب الشنفرى الجاهلي قصيدة بعنوان «لامية العرب».

– أنا أعرف هذا.. تماماً كما أعرف أني من العرب.

★ أعرف أنك تعرف هذا.. ولكني أقول لك بكل ثبات.. إنك لا تعرف شيئاً عن «لامية الفرات».. لأنها مكتوبة في القرن الحادي والعشرين للميلاد.. وهي تهجو الغزاة الأوغاد.. ممن يحتلون بغداد.. كما تهاجم الجبناء والخونة.. لأن رائحتهم تبدو دائماً عفنة.

... ما هي إلا لحظات.. بعدها استمع الطغرائي إلى «لامية الفرات».. التي ترفض اليأس والسبات.. وتدعو الثوار للثبات.. رغم ما يواجهونه من نكبات:

«ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ»

فليمسح الدمع من يسعى إلى العملِ

إني نفضت رماد الحزن متصراً

على الضياع وما يطويه من علل

أبكيك.. لا.. فسماء الروح زاهية

بليلة شهدت إطلالة البطل

أبكيك.. لا.. بل أحيي النسر مشتعلاً

والحق مرتحلاً عن كل مبتذل

بغداد.. ما أنت عن قلبي بغائبة

فالنبض منك وأنت الروح يا أملي

لم يبق في القلب غير النار تصهرني

وتشحذ العزم مقداماً بلا وجل

لم يبق في القلب غير الشوق يدفعني

إلى طريق بنور الحق متصل

النار تحرقنا.. والنار تصهرنا

والنار تأتي على الأنقاض والخلل

فاثبت على مبدأ عشت الحياة له

ولا تبتْ لحظة في خيمة الدجل

إن المصائب إن فاضت تطهرنا

مما كسانا به اللاهون من كسل

.. قال الطغرائي للمجنون.. وقد تحدر على خديه دمع هتون.. ما أشبه الليلة بالبارحة.. لكن أصحاب النفوس الطامحة.. لابد أن ينتصروا على الشر والعدوان.. وهذا ما يحدث في كل زمان ومكان.

obeikandl.com

٣٠

المتنبي يطل على بغداد .. ويرفض الانقياد .. وراء أباطيل الأوغاد

أزاح المجنون عن نفسه.. ما كان من أحزان أمسه.. ونفض غبار يأسه.. مؤكداً أنه لا ينبغي للمجنون أن يتوه.. حتى لو تاه كل العقلاء الذين عرفهم وعرفوه.. أو غير بعضهم ملامح الوجوه.. وأخذوا يرفعون شعارات كاذبة.. لكي يتملقوا بها القوة الغالبة.. متنكرين لنور الشمس ما دامت قد أصبحت غارية.. وعلى الفور تذكر المجنون.. ما قاله له جده العبقري ابن خلدون.. وكيف أنه قد رأى بفكره الثاقب.. أن المغلوب مولع بتقليد الغالب.. وانطلقت من قلب المجنون الآه.. وهو يقول:لا غالب إلا الله.. الحق أحق بأن يتبع.. مهما طغى ضلال واندفع.

سمع المجنون صوتاً ينضح بالأحزان.. رغم أن نبرات الصوت تشع بالعنفوان.. وأحس المجنون أن الصوت ليس ببعيد.. وأنه صوت عملاق فريد:

«مغاني الشعب طيباً في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمانِ

ولكن الفتى العربي فيها

غريب الوجه واليد واللسانِ»

.. كانت الطرقات غارقة في الظلمات. لكن المجنون أسرع في الخطوات.. لكي يبحث عن مصدر الصوت القوي النبرات.. وبنور

القلب الصادق. تجلى للمجنون جبل شاهق.. على قمته يجلس رجل وحيد.. ومن هيئته يبدو أنه آت من زمان بعيد.

★ من أنت أيها الرجل الوحيد؟

- لست بالوحيد.. ما دمت عن الحق لا أحيد.

★ لكني أراك تجلس وحدك. وليس من أحد معك أو ضدك.

- أتسألني من أنا وأنت تعرفني؟!.. أنا أعرف جيداً أنك دائماً تذكرني. ولن تستطيع أن تنكرني. إلا إذا صادروا قلبك.. وجعلوك - أستغفر الله - تنسى ربك.

★ الحق أني كنت أعرف أنه أنت.. منذ أن استمعت إلى ما استمعت من صوت.. إنه أنت.. ولكن ماذا تفعل يا سيدي هنا؟

- أتسألني هذا السؤال؟.. هل اختلطت الحقيقة إلى هذا الحد بالضلال؟.. أنا هنا فوق تراب وطني.. أشهد ما أصابه من محن وأتذكر أيضاً محني.. لقد قتلني ذات ليل قطاع طريق.. ونهبوا ما كان معي من نفائس ذات بريق.. لكنهم لم يستطيعوا نهب ما كنت كتبت.. ولهذا ماتوا أما أنا فقد خلدت.. ألست أنت واحداً ممن يقرأون أشعاري.. ويعرفون تفاصيل حياتي وأسفاري.. ويتذكرون دائماً في كل ليلة.. قصائدي في سيف الدولة وهجائي الغاضب لكافور.. ذلك الكلب الغادر العقور.

★ يا سيدي.. هذا ما كان.. ولكني أسألك عما تفعله الآن؟

- لقد عدت من سحيق الزمن.. لأقبل وجه الوطن.. وهو يواجه ما يواجه من محن.. والمحزن حقاً إني وجدت كثيرين من «العلوج».. يمنعون الناس من الدخول أو الخروج.. إلا بعد أن يثبتوا لهم أنهم عرب.. ولهذا أدخل «العلوج» أبا لهب.. وجاءوا معهم بمن قتل أو نهب.. آه يا أرض العراق.. مالي من الحزن انعتاق.. وأنا أعرف أن حمورابي حزين. لكني أعرف أيضاً أن عشتار لن تلين.. أما الذين يرفعون الشعارات الكاذبة.. لكي يتملقوا بها قوة العلوج الغالبة.. فإني أعرف إنهم مسوخ.. وحتماً سيتلاشون حين يعود زمان الشموخ:

ببغداد الجريحة كم أعاني

من الزمن الملطخ بالهوان

أطل على خـراب فـاق حـزني
وأشـهد مـا يضـيق بـه كيـاني
ظـلال الأجنبـي عـلى ثراهـا
ورائحـة الخيانـة في المكـان
وحسرة فارس أضحى وحيداً
بـلا درع تقيـه ولا حصـان
وينتظـر الشـهادة دون فتـوى
ودجلـة في انتظـار العنفـوان
جراحات الحسين بلا نصـير
«وإن كثر التجمل» في المعاني
وسيف الدولـة النـائي معنًّى
ويسأل في المصيبة عـن بيـاني
وإني أذ أعاتبـــه بصـــمتي
أغـص بخيبـة الـزمن المهـان
بقلبي نار شـوق لـيس تخبـو
إلى وطـــن أراه ولا يـــراني
أواجه فيـه مـن نهبـوا ديـاري
وأصـرع فيـه أبنـاء الـزواني
أرى في الليل قافلة المخـازي
وقد رقص العلوج مع الغواني
وهـذا عصـرنا العربـي يبـدو
«غريب الوجه واليد واللسان»

obeikandl.com

٣١

أبو نواس .. يتذلل للأنجاس .. لكي يعينوه في وظيفة كناس !

كثيرون من الناس يحنون الجباه.. حين يختل إيقاع الحياة.. لأن المضطر – كما يقولون – يركب الصعب.. وعليه أن يتقبل الإهانة والضرب.. وعليه ألا يحتج إذا أهين.. حتى يظل في نظر الطغاة الظالمين.. أشبه ما يكون بالخادم الأمين.. وعليه أن ينسى معاني الكرامة والعزة.. مادامت الأرض تحت قدميه مهتزة.. وطالما أن الكل يريد أن يعيش.. فلابد أن يتقف الطاووس ما يتباهى به من الريش.. ولابد أن يقنع الأسد بدلاً من اللحم بأكل الحشيش.

وجد المجنون.. أناساً كثيرين يتزاحمون.. ملامحهم الحزينة عربية.. وأيديهم تمتد بأوراق مطوية.. يقدمونها لأناس يرتدون قبعات أجنبية.. وكل منهم يريد الحصول على وظيفة.. تؤمن له أن يشتري كساءه أو دواءه أو رغيفه.. وتجنبه شر أن يتسول.. أو أن ينحرف عن الطريق ويتحلل.. بعد أن يكفر بكل الخير.. ويظل يفتش في السر أو في الجهر.. عن أردأ أنواع الخمر.

سمع المجنون كلمات فيها رطانة.. يحتاج أغلبها لتفسير أو إبانة.. لكن صاحب «البيان والتبيين».. عليه أن يتحمل كل ما في الزمن المهين.. وهكذا شوهد شخص من أصحاب القبعات.. يقرأ مما أمامه من قوائم ومن كشوفات:

★ مدام زبيدة زوجة الرشيد البعيد.. مهنتك الآن في الزمان الجديد.. خادمة في بلاط سيدنا الذي انتصر.. وعليك إطاعة أوامره إذا أمر.. وستحصلين على دولارين فوق المرتب.. إذا نظفت أحذية سيدنا الحر المهذب.

★ مدام ولادة بنت المستكفي.. أنت عشت في العز بما يكفي.. ولدينا لك الآن وظيفة.. نعتقد أنها وظيفة مشرفة وشريفة.. عليك بالرقص في البارات.. للترفيه عن أمثالي من أصحاب القبعات.. وأنا شخصياً أعتقد أن جسمك يمتلك كل المقومات.

★ مستر بشار بن برد.. لماذا لا تنطق ولا ترد؟.. أنت أعمى النظر بلا حد.. ولهذا ستعمل مهرجاً لسيدنا إذا تعب.. وعليك أن تضحكه إذا ضاق واكتأب. ويمكنك أن تقلد البروفيسور يحيى المشد.. وهو يفكر في الذرة التي من أجلها اجتهد وجد.. وعليك من الآن أن تلاحظ.. أن لدينا من العيون اليواقظ.. ما يجعلنا نعرف دائماً ما تفكر فيه.. خاصة أنّ عقلك تائه أو سفيه.. ألست أنت الذي تهجمت على النساء.. وقلت في حقهن أقبح هجاء:

«لا يخدعنك من محجبة

شتم توجهه وإن جرحا

عسر النساء إلى ملاينة

والصعب يمكن بعد ما جمحا»

.. يا مستر بشار.. أنت رجل مهذار.. ولكن عليك من الآن.. أن تحترم كل النسوان.. وإلا طردناك مما أنعمنا به عليك من وظيفة.. أعتقد أنها تبدو لك مريحة ولطيفة.

لمح المجنون من بعيد.. رجلاً يبدو على ملامحه الهم الشديد.. كانت شفتاه توحيان بأنه يتبرم.. أو بأنه يريد أن يتظلم.. لكنه لا يريد أن يتكلم.. وهنا تحرك المجنون بلا إبطاء.. وأشرع أذنيه للإصغاء.. عندما سمع أحدهم يقول.. يبدو أن الليل سيطول.. لقد قرر شاعرنا أبو نواس.. أن يزيح رهافة الإحساس.. وأن يعيش مثل كثيرين من الناس.. ولهذا فإنه تقدم بطلب.. إلى هؤلاء الذين يكرهون المسلمين والعرب.. لكي يتم تعيينه

في وظيفة كناس.. يجمع القمامة في أكياس.. لكنهم أهملوه وبخوه.. وقالوا إنه شخص معتوه.. وإنه خارج عن أجواء هذا العصر . لأنه لا يجيد غير الشعر.. ولا يكتبه إلا إذا شرب الخمر.

لم يستطع المجنون أن يعرف الحقيقة.. فالظلمات من حوله تبدو عميقة.. وهكذا ترك الناس تتجادل.. ومن أجل الوظائف الجديدة تتقاتل.. ثم أخذ يتساءل: هل يعقل أن يتذلل أبو نواس.. لكل هؤلاء الأنجاس.. لكي يعينوه في وظيفة كناس؟

فجأة تحركت الريح في الطرقات.. وهي تحمل صوتاً عالي النبرات.. فأرهف المجنون أذنيه.. لكي يستمع إلى ما حملته الريح إليه:

إن المصائب إن فاضت تطهرنا
مما كسانا به الغاوون من كسلِ
فاثبت على مبدأ عشت الحياة له
ولا تبت لحظة في خيمة الدجل
وانهض لحقك يا إنسان مصطحباً
روح المجاهد واحذر موطئ الزلل
هذا هو الوطن الغالي يذكرنا
بما اعتراه وأن الليل لم يطل
المجد للنور ما دامت جوانحنا
عطشى لوجهِ نهارٍ رائع خضل
على الفرات دم والعار في دمنا
فيا فرات اغتسل بالنار واكتحل
ويا حبيباً إلى روحي وسيدها
انهض وقم وانتفض حييتَ من بطل

obeikandl.com

٣٢

الأفعى تصادق الغول .. وأبو نواس مذهول.. لكن الليل لن يطول

وضع المجنون على صلعته الشاسعة.. طاقية إخفاء بارعة.. كان يحتفظ بها منذ أن قام بجولة.. في آفاق «ألف ليلة وليلة».. ولم يكن هدف المجنون إيذاء أحد.. وإنما كان يريد أن يرى الحقيقة عارية الجسد.. وبدون مساحيق تجميل.. من الأنواع التي تخدع أو تبرع في التضليل.

خلال جولته الجديدة.. رأى المجنون كيف ينسج اللؤماء مكائد عديدة.. لكي يستخدموها في كل أرض.. بعد أن يقتلوا الحب ويزرعوا البغض.. وهذا ما كان عندما تسلل المجنون إلى مكان.. ليس له لافتة ولا عنوان.. وفيه أجساد عارية.. يتنقل أصحابها بها من ناحية إلى ناحية.. وكل منهم يفكر فيما سيرتديه.. وفيما يمكن أن يقوله وما لابد أن يخفيه.. حتى يضحكوا جميعاً على الناس.. ويبشروهم بأنهم ليسوا مثل الوسواس الخناس.. وبأنهم يحبون الحرية للجميع.. وسيأتون لهم بأجمل ربيع.

وجد المجنون أفعى تصادق الغول.. وتحكي له كيف استطاعت تسميم العقول.. بعد أن مزجت السم بكلامها المعسول.. وقالت الأفعى للغول بكل وقاحة.. إنها عاشقة للخيانة لأنها تجعل الأرض كلها مباحة.. فتحصل على ما تريد بكل راحة.. وهنا قهقه الغول.. وبارك الأفعى وأيدها فيما تقول.. واستعد

الاثنان لارتداء الثياب.. لكي يقابلا بعض الواقفين على الباب.. وفي الحال تحولت الأفعى إلى امرأة حلوة.. تغمر قلب من يراها بالنشوة.. وتجعله يفكر في كيفية التقرب إليها.. ولو من خلال تقبيل قدميها.. أما الغول فقد تحول إلى رجل عملاق.. لكنه يبدو حسن الأخلاق.. وأشار الغول إلى الباب – وقال بهدوء: فليدخل فوراً جميع الأحباب.

لم يستطع المجنون أن يتنفس.. بل إنه كاد أن يعطس.. بسبب ما استنشقه من الرائحة النتنة.. فقال لنفسه إنها بالتأكيد رائحة الخونة.. لابد أن أخرج من هنا قبل أن يشعر بي أحد.. ويكفي أني رأيت الخيانة وهي عارية الجسد.. وكيف تحولت الأفعى إلى امرأة حلوة.. وتحول الغول إلى رجل من أصحاب النخوة.

لمح المجنون في الظلام العميق.. رجلاً يبدو أنه من سكره لا يفيق.. واستمع المجنون إلى الرجل وهو يقول.. فليذهب للجحيم كل أصحاب العقول:

«دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها

لو مسها حجر مسته سراء

وقل لمن يدعي في العلم فلسفة

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء»

كان المجنون قد أزاح عن صلعته الشاسعة.. طاقية الإخفاء البارعة.. فأبصره الرجل الزائغ النظرات على الفور.. وسأله عما إذا كان معه ولو قطرة من الخمر..

★ لماذا تحب أن تشرب؟

– لأني أريد أن أهرب.

★ من أي شيء تريد الفرار؟

– من واقع، انكشف فيه الستار.. عن أبشع أنواع الدمار.. ألست أنت الذي يسمونه المجنون؟

.. ليتني كنت مثلك في حالة جنون!

★ نعم.. أنا المجنون.. وأنت من تكون؟

- أنا أبو نواس المذهول.. من كثرة ما رأيت من أنقاض وطلول.

★ لكن الليل يا سيدي لن يطول.

- أي ليل؟.. ليل العشاق.. أم ليل الأفعى والغول العملاق؟.. إن حزني يا مجنون يتغلغل في الأعماق.. فاكتب الآن على لساني ما سأقول.. وقل للكل هذا ما قاله أبو نواس المذهول.. بعد أن عرف حقيقة الأفعى والغول:

راح شوك الشك يجتاح الجراحا

جامحاً يشطر كالسيف الصباحا

كان في روحك ليل يتخفى

بقناع متقن يخفي الرياحا

كان في صدرك عنقودان ثارا

واستثارا.. فانبرى الغول اجتياحا

وتألقت ولكن فوق دنيا

لم تزل أعماقها تخشى افتضاحا

★★★

حاصرت قلبي خيول النار تصهل

في ليال لم أقم فيها بمنزل

كنت كاللاجئ أمشي فوق يأسي

هارباً من كل شيء يتزلزل

لا أرى حولي سوى زيفك يسعى

من ورائي بشفاه تتجمل

نحن ضدان.. فإن كنا افترقنا

فلأني.. أهجر الزيف وأرحل

obeikandl.com

٣٣

ابن زيدون.. يبحث مع المجنون.. عن كنز مدفون!

فجأة أحس المجنون.. أن عاصفة من الظنون.. توشك أن تجتاح العقول.. بعد أن لفها ما يشبه الذهول.. ورأى في السماء نجمة يحاصرها الأفول.. وهي تجاهد لكي يظل نورها يتألق.. فوق نبع ما زال يترقرق.. ورأى المجنون رجلاً حزين الملامح.. يتساءل عما وقع من مذابح.. ولماذا أصبح الإنسان عدواً للإنسان.. والضعفاء في حالة إذعان.. أمام ما يتعرضون له من طغيان؟

كان الرجل الحزين الملامح.. يقف مع رجال ليست لهم أمنيات أو مطامح.. بعد أن شاهدوا الحرائق.. تجتاح أجمل الحدائق.. ورأوا كيف تنقض الصواعق.. على كل إنسان عاشق.. وحملت الريح للمجنون بعض ما دار.. بين هؤلاء الحزانى من حوار.. ولم يندهش المجنون من الأسئلة.. لأنه يعرف أن القنبلة.. لا تحب أن ترى جمال السنبلة.

عاشق يسأل الناس من شوقه للديار البعيدة

- كيف حال البلاد؟

★ إنها تلبس الآن ثوب الحداد

منذ أن أودع الحب سجن المكيدة

صادر الجند دفء الحليب الذي في صدور النساء

صادروا دمية من يد الطفلة الحلوة الراقدة
صادروا نسمة في جبين المساء
أغلقوا لهفة الشوق للشمس في ليلة باردة
حاصر الصمت كل الكلام الذي لم يقله الشقاء
والوجوه الكئيبة في كهف أسيادها تستبيح دم الأبرياء
والذي يعشق النور تطحنه الظلمة الحاقدة
كل ما قد بنيناه ينهار في لحظة واحدة
- كيف حال القمر؟
★ لم يعد أحد يشتهيه.. فخابت رؤاه.. وغاب
- كيف حال الشجر؟
★ بعثر الجند أغصانه..
ثم عادوا ليلقوا على الأرض ظل الخراب
- كيف حال المطر؟
★ إنه مقبل.. نحن نرقبه.. إنما في ارتياب
- كيف حال الزمن؟
★ إنه الآن مستنقع خاشع لجلال الوثن
- كيف لم ينتبه أحد وارتضى الكل هذا السواد؟
★ ابتعد أيها العاشق الآن من قبل أن يقبل العسكر الهائجون
ابتعد.. قبل أن تحتويك السجون
مستباحاً.. ومتهماً بالفساد!!

.. امتطى الرجل الحزين الملامح.. صهوة حصانه الجامح.. متحسراً على الزمان الذي كان فيه الحب.. يشع بأنواره في كل قلب.. وانحدرت على وجه الرجل دمعات.. بينما كان يردد بعض الأبيات:

حسنك الآتي مع الشمس صباحا

فتّح الورد بقلبي والجراحا

كم تغنيت به ذات زمان

وتنهدت انبهاراً وارتياحا

دندنت فيه سماء من حرير

وانحنت كي تغمر الأرض انشراحا

وعلى جفنيك رفت أغنيات

مسكرات تنسج الصفو وشاحا

.. وفجأة توقف الرجل عن الإنشاد.. كأنه لا يريد البوح بسره للأوغاد.. وتنهد قائلاً: ما هذا اللغو؟.. أين زمان الصفو؟.. إن الخيانة الآن عملة رائجة.. وعلى الأرض وحوش هائجة.. والتي كنت أعشقها وأهواها.. خانتني مع من أغواها.. وهنا صهل الحصان بصوت حزين.. كأنه يتعاطف مع صاحبه الذي ضاق بالهم الدفين..

فجأة.. حط ظلام.. وتمدد

في صباح غامض الطلعة مجهد

ملء عينيك عيون قد أطلت

ساخرات.. وظلال ليس تهمد

قمتُ مذعوراً بلا صوت أنادي

من تُرىَ عكر الصفو وبدد؟

قلتِ في نبرةِ مكرٍ دون ذعر

إن أعماق الليالي تتنهد!

.. تتابعت خطوات المجنون.. ليسأل الرجل عمن يكون؟.. فأخبره أنه ابن زيدون.. وأنه قد تخلص من كل ما كان قد اشتهى.. لأن زمان الوصل بالأندلس انتهى.. وقال ابن زيدون إنه

كان يعتبر «ولادة».. امرأة ساحرة فوق العادة..لكنه اكتشف أنها على الغدر معتادة.. وأن قلبها لو تكلم أو نطق.. فلابد أن يسقط البدر من الأفق...وقال ابن زيدون.. بصوت محزون.. ليتني سمعت كلام المتنبي العظيم.. وهو يفضح ما في القلب اللئيم:

«مما أضر بأهل العشق أنهموا

هووا.. وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهمو دمعاً وأنفسهم

في إثر كل قبيح وجهه حسن»

.. على كل حال علينا أن ننسى ما راح.. بعد أن هدأ قلبي واستراح.. فتعال الآن معي يا مجنون.. لكي نبحث عن كنز مدفون.. ولكن لا تسألني عن هذا الكنز الآن.. فأنا أعرف أنه موجود في كل زمان ومكان.. وربما كان موجوداً تحت قدميك.. دون أن تستطيع رؤيته بعينيك.. وربما كشفه لك وميض البرق.. فهتفت من الأعماق: إنه الصدق.. يبعدنا عن الضلال والحمق..ويهدينا إلى طرق الحق.

٣٤

المتنبي يلتقي مع أمل .. بعد أن امتزج السم بالعسل

لم يستطع المجنون.. أن ينطلق مع ابن زيدون.. للبحث عن الكنز المدفون.. واضطر للاعتذار.. عن عدم مواصلة المشوار.. بعد أن أدرك أن وراءه مهمة عاجلة.. تتطلب عبور الصحاري القاحلة.. وهذا ما كان.. حيث انطلق المجنون بصاروخه العابر للزمان.. ليشهد اللقاء بين شاعرين عربيين.. ينتميان لزمانين مختلفين.. لكنهما متفقان.. على رفض الخنوع والإذعان.. والتبشير بعودة الكرامة لكل إنسان.. حتى تكون الحياة أجمل.. ويعيش الناس في حال أفضل.

هكذا وجد المجنون نفسه في القاهرة.. بعد أن فاض به الشوق إلى لياليها الساحرة.. وإلى أصحابه الذين يكرهون الشر.. لأنهم يحبون الفن ويعشقون الشعر.. وانطلق المجنون إلى المجلس الأعلى للثقافة.. حيث وجد كثيرين ممن يعملون في الصحافة.. متلهفين لمتابعة اللقاء بين الشاعرين العربيين. اللذين ينتميان لزمانين مختلفين.. وبعد لحظات تجلى في المكان.. رجل مهيب يمتطي صهوة حصان.. وإلى جواره شاب نحيل.. يتوعد كل من عن الحق يميل.. فهمس أحد الشعراء الواقفين.. كأنه يشرح ما يرى للآخرين:

هذا هو المتنبي مع أمل.. وكلاهما كانا يبشران بالأمل.

- ولكن لماذا يتلاقيان الآن؟

- لكي يمجدا شجاعة الإنسان.. ويندد بكل متخاذل جبان.

.. وفي الحال.. تحرك أمل دنقل وقال:

«.. آه.. ما أقسى الجدار

عندما ينهض في وجه الشروق

ربما ننفق كل العمر.. كي ننقب ثغرة

ليمر النور للأجيال.. مرة

.. ربما لو لم يكن هذا الجدار

ما عرفنا قيمة الضوء الطليق..»

.. والتفت أمل إلى جابر عصفور.. وقال له: هل تعرف أن كافور.. موجود في كل زمان ومكان.. ولابد أن يتصدى له الشجعان.. فقال له جابر.. أنا لست بشاعر.. لكني أعرف أن صراع الخير مع الشر.. موجود منذ قديم الدهر.. وهنا تدخل المتنبي في الحوار.. وقال بصوت أشبه بالسيف البتار:

«إذا فلَّ عزمي عن مدى خوفُ بُعدِه

فابعد شيء ممكن لم يجد عزما

وإني لمن قوم كأن نفوسهم

بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

فلا عبرتْ بي ساعة لا تعزني

ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما»

فجأة تعالى صهيل الحصان.. كأنه يشكو من غربة المكان.. وتنحنح رجل سمين يرتدي رباط عنق، ويبدو أنه لم يعرف حياة الكدح والعرق.. وقال: إننا نرفض منطق المتنبي السقيم.. رغم أن كثيرين يؤكدون أنه شاعر حكيم.. فطالما أننا مغلوبون وضعفاء.. لابد أن نذعن للأقوياء.. حتى لو كانوا من السفهاء.. وأنا شخصياً أحب نيرون.. لأنه يترك لي الحرية في المجون.. ولا يلقيني في السجون.. إلا إذا تمردت على ما

يريد.. وحاولت أن أشوه سمعة عصره المجيد.. يا سيد متنبي إننا نريد أن نعيش.. حتى لو طلب منا نيرون أكل الحشيش.. فلماذا أنت دائماً ثائر؟.. ولماذا تحب أن تفتح القلوب والبصائر؟.. دعنا نعيش في هذا الزمان.. وعد أنت إلى زمانك الآن.. فالصلح مع الأعداء خير.. وهذا هو منطق العصر.. وهنا احتد أمل.. وقال: هذا مزج للسم في العسل.. وصرخ وهو يرفع راية الإدانة.. لكل منطق فيه جبن وخيانة:

«لا تصالح.. ولو منحوك الذهب
أترى حين أفقا عينيك..
ثم أُثبتُ جوهرتين مكانهما..
هل ترى..؟
هي أشياء لا تُشترى..»

.. وضع المتنبي يده على كتف أمل.. ولعن كل الذين يمزجون السم بالعسل.. ثم أشار إلى الرجل البدين.. وقال له بصوت هادر مبين:

«أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا
وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
أميناً وإخلافاً وغدراً وخسة
وجبناً.. أشخصاً لحت لي أم مخازيا؟
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة
وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل إنني
رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وإنك لا تدري ألونك أسود
من الجهل أم قد صار أبيض صافيا

ومثلـــك يـــؤتى مـــن بـــلاد بعيـــدة

ليُضـــحك ربـــات الحـــداد البواكيـــا»

.. حاول جابر عصفور تلطيف الأجواء.. لكن المتنبي لم يكف عن الهجاء.. وأكد أن لقاءه هذا مع أمل.. هو لفضح من يمزجون السم بالعسل.

obeikandl.com

٣٥

حمار.. يحاول الانتحار.. احتجاجاً على الانحدار!

جلس المجنون في المساء.. في حالة استرخاء.. ليستمتع بالموسيقى والغناء.. حيث استمع إلى أسمهان.. وهي تتشكى اللوعة والحرمان.. واستمع إلى محمد عبد الوهاب.. وهو يعاتب الحبيب الذي غاب.. بعد أن سقاه من وهم السراب.. واستمع المجنون بالطبع إلى أم كلثوم.. لكي تزيح عن صدره الهموم.. وتذكر أنه كان قد وجه إليها قصيدة.. يعاتبها لأنها أصبحت بعيدة.. وهكذا أخذ يناجي «كوكب الشرق».. التي كانت تصدح في ليالي الشرق:

يا أم كلثوم.. يا روحاً عشقناها

سلي كؤوس المنى كيف ارتشفناها

من سحر صوتك يسري في جوانحنا

عشنا الحياة وعاش العشق يرعاها

ففي غنائك للعشاق نشوتهم

وفي ابتهال الصحارى أنت سقياها

تخضر مورقة.. تحيي روائحها

أرواح من خبروا الدنيا وبلواها

يـــا أم كلثـــوم والأشـــواق عائـــدة

ما أوجع الآه في «الأطلال» تغشاها

يا «قصة الأمـل» أشـجتنا مواجعهـا

ولم تـــزل كاســـها تغـــري نـــداماها

«رق الحبيـــب» ووافانَـــا بطلعتـــه

فانزاح عن روحنا مـا كـان أشـجاها

يا كوكب الشوق يلتـف النسيم بهـا

في كـــل أغنيـــة تهـــدي عطاياهـــا

غناؤك لسـحر تشـتاق القلـوب لـه

مهما هجرتِ.. وسيفُ الهجر أدماها

في كـل قلـب أريـج منـك يسـكره

يا بوح أشـواقنا العطشى وسـلواها

.. أفاق المجنون من نشوته.. فاعتدل بسرعة في جلسته.. ولم يجد معه غير وحشته ووحدته.. لأنه يرفض حكاية «الأصوات الجديـدة».. ويـرى أن أصـحابها لا يملكـون سوى حناجر بليدة.. كما إنهم يتصورون أن الغناء هو النهيق.. وهكذا يظلمـون الحمير التي تسير في الطريق.. وكل هذا لأن أغبى حمـار.. يمكـن أن يقـدم عـلى الانتحـار.. لـو اضطر للاستماع لهؤلاء.. وهـم ينهقون بما يسمونه بالغناء.. ورغم هـذا فهـم يكسـبون الملايين.. لأنهم يضحكون على الشباب المساكين.. ويقفزون على المسـرح كـالقرود.. ويتحركون ما بين هبوط وصعود.. لأنهم تعلموا من البقرة النطاحة.. وتربوا في أحضـان الذبابة الملحاحة.. ولهم وجوه غريبة.. كما أن لهـم أسـماء عجيبـة.. فمـنهن «أوهـام» و«بلوى نكران»..ومنهم «سراب تلفيق» و«راكـب نعامـة» و«نـائم الفـاتر» و«تمرجـي» و«مكوجي»..!

خرج المجنون مـن بيتـه دون إبطـاء.. بعـد أن سـمع صـوت سـيارة إسـعاف يمـلأ

الأجواء.. فاندفع بسرعة ليعرف السبب.. حتى يبطل العجب.. فإذا به يجد الناس متزاحمين.. حول حمار بائس ومسكين.. وقد سقط الحمار على الأرض..وبدت على عينيه علامات السخط والرفض.. وعلى الفور عرف المجنون الحمار.. ودار بينهما حوار:

★ ألست أنت حمار الحكيم؟

- نعم.. لكن صاحبي توفيق الحكيم.. تركني وحدي أهيم.. ورحل دون أن يترك لي ولو حزمة برسيم.

★ ولماذا أنت واقع على الأرض.. بالطول بالعرض؟

- بصراحة.. لقد حاولت الانتحار.. حيث شربت جرعة من ماء النار..

★ ولماذا حاولت الانتحار.. مع أنك أذكى من أي حمار؟

- السبب لا يحتاج لشرح أو تعليق.. فقد استمعت إلى أغنيات موسيقاها نهيق.. وفيها تبدو الكلمات.. أشبه بالركلات واللكمات.

★ كيف تحتج إلى النهيق.. وأنت رائد هذا الفن العريق؟

- لأن الذين استمعت لهم ليست لهم رسالة.. وليست في أصواتهم أصالة!

★ لم أفهم ما تقول!

- كيف لم تفهم ما أقول.. وأنت وسواك من الناس أصحاب عقول؟.. المسألة باختصار.. أن المطربين الذين يؤكدون أنهم كبار.. ليست لديهم قدرة على الإبداع والابتكار.. وكلهم يحاول تقليد نهيق الحمار.. وهو تقليد فاشل.. وقد أخبرتهم بهذا فقالوا لي لا تناقش ولا تجادل.. ثم طردوني من الحفلة.. وألقوا بي في الشارع منذ ليلة..

تحمل المجنون ما على الأرض من غبار.. وجلس بهدوء جنب الحمار.. لكن الحمار أجهش بالنهيق.. فرق له قلب رجل الإسعاف الرقيق.. وأعطاه حقنة مخدرة.. لكنها لم تكن مؤثرة.. لأن سم الأغنيات.. كان قد سرى في كل ما للحمار من نبضات.. وهنا تكلم رجل أصلع.. يفخر بأن الشمس من رأسه تسطع.. وقال للحمار.. بمنتهى الجد والوقار:

- لماذا لا تعود إلى زمان توفيق الحكيم؟

★ وكيف أنفذ من أسوار هذا الزمن الدميم؟.

- يمكنك أن تحاول.. ما دامت لديك آمال بلا حائل!

.. أطلق الحمار تنهيدة حزينة الإيقاع.. كأنه يطلق بها ما في صدره من أوجاع.. وأخذ يتذكر ما كان يقوله من قديم.. مما سجله له توفيق الحكيم: «متى ينصفني الزمان.. فأركب صاحبي.. بدلاً من أن يركبني.. فأنا جاهل بسيط.. وهو جاهل مركب..؟!».

فجأة.. دوت في الأرجاء.. أغنية ركيكة الأداء.. فخر الحمار مغشياً عليه من فرط الإعياء.. هذا وما زال الحمار في حالة إغماء!

obeikandl.com

٣٦

الحمار يجرب الغناء فيتألق.. وعلى سواه يتفوق

حملت الريح جثة الأغنية البليدة.. وألقتها في أرض بعيدة.. فتحسنت حالة الحمار.. وزال عنه ما انتابه من دوار.. وخطرت على باله فكرة حلوة.. غمرت قلبه بالفرح والنشوة.. فقرر أن يشرح فكرته للمجنون.. وهو يؤكد أن نجاحها مضمون.. أما المجنون فقد رأى أن الفكرة هي عين العقل.. ولكن لابد من عبور القول إلى مرحلة الفعل.. وهكذا انطلق الإثنان.. من مكان إلى مكان.. وهما يتحاوران ويفكران.. ثم اشترى المجنون قناعاً لرجل وسيم.. من الطراز الذي تقع في غرامه الحريم.. واستأجر من دكان «المكوجي» ملابس فخمة.. واتجه الاثنان لمنطقة تسودها العتمة.. حيث تم تدريب الحمار على أن يمشي على اثنتين.. وأن يغمز بالعينين.. ووضع المجنون القناع على وجه الحمار.. فأصبح أجمل من شمس النهار.

في المؤتمر الصحفي الذي ازدحم بالإعلاميين.. أكد المجنون أن المطرب الذي أمامهم سيسحق كل المطربين.. ثم تولى الإجابة على الأسئلة نيابة عن الحمار.. أما الحمار فقد بدا في غاية الوقار.. وفي اليوم التالي كتبت الجرائد عن المطرب – المعجزة.. وكيف أن صوته يطغى على كل الأجهزة.. وانفردت جريدة واحدة.. بنشر قصيدة خالدة.. يؤكد فيها صاحبها أن المطرب الجديد.. أفضل من «زرياب» الأندلسي الفريد.. وهو أفضل من كل مطربي

العصر..فضلاً عن إتقانه غناء الشعر.. وقد أشاد الشاعر بالمطرب الوسيم.. وسماه «ناهق الحكيم»:

الحمار المثقف المعروفُ
هو في الليل مطرب فيلسوفُ
قط لم يأكل الحشيش ولكن
بنجوم من صوته معلوف
ويجيد الأنغام عزفاً وصوتاً
ويحيي الجمهور أين يطوف
بجمال الغناء يُسكر جيلاً
والجميلات في هواه صفوف
روح «زرياب» قد تقمص فيه
وكذا الأرواح فينا ضيوف
وهو لا يبدع النهيق ولكن
فلسفات قد صورتها حروف
جاء في معشر تساوى لديه
آدمي مفكر.. وخروف
ومن الخلق ناطق كان أولى
لو كسا جلده من الثوب صوف
ومن الخلق ناطق كان يمسي
في عداد الحمير لولا الألوف

.. جاء موعد الحفلة الساهرة.. فارتدى الحمار الملابس الفاخرة..وعلى عنقه وضع رباط عنق.. ألوانه تكاد تغزو الأفق.. ولم ينس بالطبع أن يضع على وجهه القناع.. حتى لا يكشفه الذين جاءوا للاستماع.. وأخفى الحمار ذيله في البنطلون.. كما أشار عليه بهذا

المجنون.. أما المجنون فقد انتحل صفة«المستشار الفني»..ولم يخش عاقبة التجني.. وجاء الشبان ومعهم الفتيات.. وما هي إلا لحظات.. حتى ظهر المطرب الوسيم.. الفنان ناهق الحكيم.. وتحمست الأكف للتصفيق.. وقال الصحفيون أن التصفيق.. شهادة للمطرب لا تحتاج إلى تعليق.

بدأ الحفل برقصة «الحوافر».. فتجاوب معها كل حاضر.. ثم نهق «ناهق الحكيم»... أغنية «الحب القديم».. فأغمي على إحدى الفتيات.. بعد أن شرد ذهنها في الزمان الذي فات.. ومع احتدام الرقص.. كاد المطرب أن يندمج في «الرفص».. لكنه تذكر أن الناس يتصورون أنه مطرب من البشر.. فأزاح عن ذهنه ما قد بدر.. وغنى «ناهق الحكيم» عدة أغنيات.. كلها قوبلت بجسر من التنهدات.. من بينها أغنية «ارفص حبيبك قبل ما يرفصك».. وأغنية «رفصتين.. رفصتين.. الدنيا لينا إحنا الاتنين».. وأغنية«يا منهفين للناس.. مالكم ومال الناس؟..».

قدم المجنون هدايا للصحفيين.. قبل أن يغادروا قاعة الحفل منصرفين.. وفي صباح اليوم التالي.. كتب الصحفيون الدرر واللآلي.. وتوقعوا للمطرب الجديد أن ينجح باستمرار.. خصوصاً أن صوته في حالة ازدهار.. وقارن بعض الصحفيين بشكل ماكر لئيم.. بين «ناهق الحكيم».. والأصوات التي أصبحت مثل «الشكمان» القديم.. وأجمعوا على أنه جرب الغناء فتألق.. وأنه على سواه قد تفوق

اغتاظ المطربون مما جرى.. وقالوا:ماذا نفعل ياترى؟.. واتفقوا على استئجار بعض الفتوات.. لكي يكيلوا لناهق الحكيم أوجع اللكمات..ويشبعوه مس بحر الصفعات..وبالفعل تم تأجير هؤلاء.. وانطلقوا جميعاً دون إبطاء.. وكل منهم يترصد.. ويتحرك لضرب ناهق الحكيم حتى يتعهد.. بأن يكف تماماً عن الغناء.. وإلا فإنه سيلاقي أشد البلاء.

فوجئ الفتوات بأن «ناهق» أقوى منهم.. وبأنه رفسهم بعنف ثم ابتعد عنهم.. وحين اختلى الحمار مع المجنون.. قال له بنهيق حاد ومسنون:

أرأيت كيف أن الصحفيين يكذبون؟.. لقد قررت اعتزال فن التنهيق . مادام في الأرض كل هذا النلفيق!

obeikandl.com

٣٧

ليلى تتسلى بالمجنون .. وعزة تشرب الينسون

حين اكتشف الرجل الأصلع.. أن رأسه دائماً تسطع.. خاف أن يحسده الذين لهم شعر.. لأن رؤوسهم لا تسطع حتى في عز الظهر.. فقرر أن يشتري قبعة سوداء.. لكي تحجب ما ينبعث من رأسه من أضواء.. وحين اكتشفت المرأة الحلوة الرائعة.. أن عيون الرجال تنهشها بنظرات جائعة.. أدركت أنها تستطيع تحقيق كل ما تتمناه.. بفضل همة أصحاب السلطان والجاه.. بشرط أن يكون هؤلاء من أصحاب البصر.. وممن يضعفون أمام وجه القمر.. وهكذا ظل الأصلع في حالة عسر. رغم أنه من أصحاب الفكر.. بينما عاشت المرأة في رخاء ويسر.. رغم أنها لم تقرأ غير كتاب «عذاب القبر».

قارن المجنون بين الشجر.. الذي يجود بما لديه من ثمر.. وبين الذين يزرعون في الأرض الفتن.. لكي يقبضوا من هذا ومن ذاك الثمن.. بل إنهم يخطفون ما في أيدي الآخرين.. إذا أدركوا أنهم من الضعفاء المساكين.. وبعد أن أحس المجنون بأنانية الأصلع.. ورأى سخاء المرأة التي إليها العيون تتطلع.. قرر أن يهرب من المقارنات.. وأن يريح ذهنه من الصراعات والمشاحنات. فركب صاروخه العابر للزمان.. بعد أن ربط حزام الأمان.. واتجه صوب زمان بعيد.. كانت الأرواح تتنفس فيه كما تريد.. وكان العاشق فيه يقنع بحبيبة واحدة.. يفتح لها كنوز قلبه

الخالدة.. وإذا كان العاشق من الشعراء.. يظل يكتب عن حبيبته بلا انتهاء.. وبينما كان المجنون في مشيته يتمهل.. شاهد رجلاً زائغ العينين يتجول.. ويبدو كأنه يحمل جبلاً من الأحزان.. وإن كان يحاول النسيان. وحملت الريح إلى المجنون صوت الرجل وهو يقول.. فيما يشبه الذهول:

حسنك الساحر يا ليلى نثار من رمال في صحارى شاسعة

والينابيع سراب

لو كتمت الحب في قلبي وخبأت شموس الأمنيات الجائعة

لو تعافيت من الشعر وعذبت العذاب!

قيل إني قد جُننت

وعلى رمل الصحاري أرجفوا أني استكنت

لست مجنوناً.. ولكن رواة الزور والغيبة شاءوا أن أكون ويحهم مما أشاعوا.. ويحهم كم يكذبون

جبل التوباد يشهد

والليالي في سراها تشهد القلب المسهد

لا من الحب ولا من صهد أشواقي ولكن من أكاذيب الشفاه

وأنا أعرف أني حين أحببت.. صدقت

ويأشعاري احترقت

وأنا أعرف أني قد تمردت على الزيف فأرخصت الحياة

وسأبقى نابضاً في كل قلب أخضر. حين يوافيه هواه

ودمي في كل أرض وردة حمراء تسمو فوق ضوضاء القرون

آه يا قلبي الذي لم يكتم الحب المصون

«قد يهون العمر إلا ساعة» مسحورة من بعدها الدنيا تهون

انطلق المجنون دون أن يتردد.. واقترب من الرجل الذي كان يتنهد.. واغتاظ الرجل لأن المجنون أفسد عليه خلوته.. فأطلق في وجهه صيحته:

★ من أنت أيها الرجل الغريب؟

- أنا المجنون!

★ هذا أمر عجيب!

- ما الذي يدعوك للعجب.. يا أخا العرب؟

★ لأني أيضاً مجنون.. الناس يقولون عني إني مجنون ليلى.. وأنا وأنت الآن في مكان يسمى وادي عبقر أو أرض الجن!.

- مادمت أنت مجنون ليلى.. فاسمح لي أن أقول لك إني أعرف أخبارك.. كما أني أحفظ أشعارك.

★ هل تعرف أن ما تعرفه فيه الصواب وفيه الخطأ؟

- نعم.. فهناك قصائد أنت كتبتها فعلاً.. وهناك قصائد أخرى كتبها آخرون.. وزعموا أن قائلها هو المجنون!.

★ أحسنت.. إنهم الرواة الكاذبون.

- وهل تعرف أنت أن هناك من كتبوا عن مأساتك مع ليلى.. وإن أمير الشعراء شوقي قد كتب عنك مسرحية شعرية مشهورة.. وفي قلوب العشاق محفورة؟

★ أنا أعرف هذا بالتأكيد.. فقد كتب شوقي عني «مجنون ليلى» أما صلاح عبد الصبور فقد كتب «ليلى والمجنون».

- يا للعجب!

★ لماذا تتعجب.. يا أخا العرب؟

- لأنك لم تعش في زمان أحمد شوقي ولا في زمان صلاح عبد الصبور.. فكيف عرفت أنهما كتبا عنك؟!

★ من الإنترنت!!

- ماذا؟!

★ قلت لك من الإنترنت. فلدينا نحن أيضاً إنترنت.. لكن لا نستخدمه عن طريق الكمبيوتر.. وإنما عن طريق الأرواح الهائمة في الهواء!.

- وهل أنت الوحيد من بين شعراء زمانك الذي تستخدم الإنترنت..؟

★ لا.. لست الوحيد.. فالإنترنت هنا متاح بالمجان لمن يريد.. وأنا أحياناً أتابع الإنترنت مع صديقي جميل الذي عشق بثينة ومع صديقي كُثير الذي أحب عزة وقد أخبرني كثير منذ عدة قرون.. أن عزة تحسد الذين ينسون.. وأنها لا تشرب إلا الينسون.. لأنها بالفعل قد أحبته من صميم القلب.. رغم أنها تزوجت رجلاً لا يعرف الحب.. وهذا ما دفعها لأن تبتعد عني.. لكي تنسى ما كان بينها وبيني.. وهذا ما قاله لي كُثير ذات ليلة:

«وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولتِ
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها
كناذرة نذراً فأوفت وحلتِ
وما أنصفت أما النساء فبغضت
إليَّ وأما بالنوال فضنتِ»

- وهذا هو نفسه الذي جرى بينك وبين ليلى.

★ سأشرح لك فيما بعد هذا الأمر.. بشرط أن يكون أشبه بالسر.

.. وهنا تنهد قيس المجنون.. وهمس بصوت بالجن مسكون:

«أمر على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا»

٣٨

مجنون ليلى يسقط بالضربة القاضية.. في أقل من ثانية

في قلب وادي الجن.. أخذ مجنون ليلى يئن.. وتآمرت عليه رياح مجنونة.. أخذت ترشقه بالإبر المسنونة..بينما أرعدت فوقه السماء.. وامتلأت الأجواء.. بحركات غريبة من أشباح سوداء.. خرجت من بئر ليس بها أعماق.. لتتهكم على مجنون ليلى دون إشفاق.

أمسك المجنون كتف مجنون ليلى بحسم.. وقال له: لابد أن تبعد عنك هذا الهم.. اتصل بليلى الآن.. واسألها هل ما زالت تحبك مثل أيام زمان.. أم أنها شربت من نهر النسيان.. وإذا كانت قد نسيتك فعليك أن تنساها..وأن تنفض عن روحك غبار ذكراها.. حتى تعيش أنت حياتك من جديد..وتبدأ رحلة البحث عن عالم سعيد.. وفي الحال قدم المجنون لمجنون ليلى موبايل نوكيا.. وقال له إن هذا الجهاز الذي تتجمع فيه حبات لوبيا وفاصوليا..يتكفل بأن تتكلم مع ليلى بشكل مباشر.. حتى لو كانت هي في أقصى الحواضر..المهم في الأمر أن يكون لديها تليفون.. تستطيع هي أن ترد عليك منه يا مجنون! مفاجأة حلوة.. غمرت قلب المجنون بالنشوة.. فقد أخرج مجنون ليلى ورقة.. كانت مطوية في جيبه ومختفية.. وقال إن ليلى قد أعطتها له قبل الفراق.. ففتح المجنون الورقة بلهفة واشتياق.. وإذا بالورقة تنبض بعدة أرقام.. مكتوبة بدقة وبنظام.. ففرح المجنون بما رآه.. وأخذ الموبايل بيمناه..وضغط على الأزرار.. وإذا بصوت

ليلى يتردد دون حائل أو أسوار:

★ آلو.. من يطلبني في هذا الليل؟.. من يشغلني عما في بيتي من حفل؟

- أنا قيس بن الملوح.. وقد أضنى الحب جسدي فترنح.. هل تذكرين ما كان بيننا من عهود..قبل أن يقيدوك بما أنت فيه من قيود؟

★ يا سيد قيس.. فلتتجرع كأس اليأس..فليس بيني وبينك أي عهد!

- أهذا هو الرد.. على من أحبك بغير حد؟

★ نعم.. فأنت مسكين لا تملك غير الكلمات..وأنا تزوجت واحداً ممن لديهم خيرات وثروات.

- لكن الحب أجمل ثروة.

★ هذا هو الوهم الذي أردت أن تغرقني فيه.

- هل هذا يعني أنك لم تعرفي الحب؟

★ طبعاً.. لأن كل من يتحدث عن الحب.. هو إنسان فارغ الجيب.. ليس لديه دفتر شيكات..ولا يملك إلا عدة أبيات.. يصور فيها بلواه.. أو يناجي فيها من يتوهم أنها لن تنساه!.. أتعرف أني في كل ليلة.. أقيم في بيتي حفلة.. وأختار من بين المدعوين.. واحداً من المجانين.. الذين يملكون الملايين.. وأتركه يتغزل.. وأفرح حين يتوسل.

- أهذا هو الحب عندك يا ليلى؟

★ مدام ليلى من فضلك يا سيد قيس؟

.. ألقى مجنون ليلى الموبايل في الرمل.. وخر مغشياً عليه فوق الوحل.. ثم أفاق ليستمع إلى عويل الرياح.. وهي تذكره بالزمان الذي راح.. مخلفاً في قلبه الجراح:

كلهم كانوا يغنون لليلى إنما مهجة ليلى لم تكن

مشغولة إلا بليلى

هكذا مرت لكي تصغي لأشعار من المجنون حتى

تتجلى

بين باقات الصديقات وتبقى.. هي أحلى

في عيون الشعراء

وقتها.. تزهو بأن الشعر مبهور بليلى وحدها كي

تتسلى

بينما المجنون يهذي بعد أن ذاب اشتياقاً واضمحلا

فوق رمل الصحراء.

.. من جمال الشعر.. ليلى أصبحت أحلى أميرة

جاءها العشاق يسعون إلى النجمة من أطراف أرجاء

الجزيرة

جاءها هذا بشعرٍ.. جاءها ذاك بخيلٍ.. جاءها آخر محفوفاً بأموال وفيرة

صارت النجمة أفعى حين تسعى في هدوء ناعم نحو

الضحايا

جاءها ورد فصالت ثم صادت عزه فوق الحشيات

الوثيرة

واستبدت كي تثيره

صارت النجمة أفعى حولها أكداس أموال وزوج

وهدايا

واحتوت مهجة ليلى كل من كان شجياً أو سخياً

بالعطايا

.. بكى المجنونان على ضعف الناس.. حين يتكالبون على المال فيفقدون أجمل إحساس.. وجأر مجنون ليلى بالشكوى.. تحت ضغط ما عاناه من بلوى:

«جبل التوباد حياك الحيا

وسقى الله صبانا ورعى

فيك ناغينا الهوى في مهده

ورضعناه فكنت المرضعا

وحدونا الشمس في مغربها

وبكرنا فسبقنا المطلعا

قد يهون العمر إلا ساعة

وتهون الأرض إلا موضعا»

.. اغتاظ المجنون من مجنون ليلى وطالبه أن يعود إلى الصواب.. وإلا فإنه سيظل يشرب من السراب.. وهنا بكى مجنون ليلى وقال:

«أعد الليالي ليلة بعد ليلة

وقد عشت دهراً لا أعد الليالیا

وأخرج مُن بين البيوت لعلني

أحدث عنك النفس بالليل خاليا

أراني إذا صليت يممت نحوها

بوجهي وإن كان المصلي ورائيا

أحب من الأسماء ما وافق اسمها

أو أشبهه أو كان منه دانيا»

وبعد دقائق معدودات.. سمع الإثنان أصوات حمحمات.. وإذا بفارس جميل يترجل.. ويقترب منهما وهو يتمهل.. ثم صرخ في مجنون ليلى وقال:

– ابعد عنك شريدك يا قيس..إن كنت تريد أن يكون لك مكان تحت الشمس .. إنك شاعر عذب ورقيق.. ولكني جئت لأجعلك تفيق. هل تظن أن النساء.. يعشقن من يتلذذ بالشقاء.. إنهض بسرعة كي أعلمك معنى الرجولة.. فربما صرت مضرب الأمثال في البطولة.

وقف المجنون بين مجنون ليلى والفارس الجميل..وتجلى الفارق بين الجسدين.. لكل من يملك عينين.. وفجأة سدد الفارس ضربة قاضية.. فسقط مجنون ليلى على الأرض في أقل من ثانية!

٣٩

المجانين ليسوا مساكين ولا يحتاجون للدفاع المحامين

بعد أن أفاق قيس بن الملوح.. لم يعد يشكو أو يترنح.. وقرر أن ينسى عذاب روحه المجروحة.. وأن يقبل على الأكل بشهية مفتوحة.. لكي يصبح سليم الجسد.. ولا يتعرض للسخرية من أحد.. وضحك مجنون ليلى ضحكة عالية.. عندما تذكر أن سقوطه بالضربة القاضية.. في أقل من ثانية.. كان بسبب ما يحمله من هم.. وليس بسبب قوة الملاكم الخصم.

فرح المجنون بقيس.. وقال له: عليك دائماً أن تهزم اليأس.. حتى يبتعد عنك شبح النحس.. وتذكر أن الحب ليس منبعاً للبلوى..ولا ليلاً طويلاً تبث فيه الشكوى.. وأكد المجنون لقيس.. أن الرجل الذي وجه له ضربة في الرأس.. ليس ملاكماً وإنما هو شاعر.. لكنه ليس ممن يبكون. وليس ممن يشكون.. فهو دائماً ينسى الماضي ليعيش في الحاضر..ولا يسمح لأي وجه ساحر.. بأن يحول حياته إلى نكد. خصوصاً أنه يعيش في عز وفي رغد. ويزعم أن جميع النساء.. هن اللواتي يقبلن عليه دون إبطاء.. ويبدو أنه أراد لك الخير.. وأن يخرجك مما أنت فيه من أسر.. خاصة بعد أن عرف حب ليلى للغدر.

هل تعرف يا مجنون هذا الشاعر؟

– نعم.. إنه عمر بن أبي ربيعة.. وقد روى لي من قبل أنه كان

يرتاد كازينو بديعة.. كما أنني التقيت معه في الليدو بباريس.. وكانت النساء تحملق فيه كأنه جوهر نفيس.

وما اسم حبيبته التي تسببت في مصيبته؟

- إن عمر بن أبي ربيعة ليس مثلك يا قيس بن الملوح.. إنه من سهام الحب لا يترنح.. وهو لا يشكو ولا يتنهد. ولهذا فإن شبابه دائماً يتجدد.. وقد رأيته في الليدو كالطاووس المختال.. وهو يرقص بين نساء من مختلف الأشكال.. ولقد ألقى ليلتها قصيدة.. أتصور أنها قصيدة رائعة وفريدة.. وقد صور فيها إحساسه بالطرب.. وألقاها أمامي وأمام بعض العرب.. وكانت صراحته بادية في القصيدة.. وأبدى رأيه في النساء بدقة شديدة.

هل تتذكر شيئاً مما قال؟

نعم يا صديقي قيس.. فاستمع الآن لما كان قد قال:

يقبل الليل فينسينا النهار

عندما يلقي على الدنيا ستار

هذه سوزي بتانجو تتلوى

هذه جين تحيي BON SOIR

ونبيذ من شفاه تتغنى

أخطف القبلة منها باقتدار

وأنا أرقص كالساحر لما

يتمشى بين أولاد صغار

قدمي تبدع إيقاعاً عجيباً

بينما النسوة حولي في انبهار

كل هذا في ستار الليل يجري

كيف بالله نرى نور النهار؟!

.. فجأة اقتحم المكان.. رجل يرصع صدره بأكثر من نيشان.. ويرتدي روباً لونه أسود.. وظل الرجل يجيل بصره فيما يشهد.. ثم قال بصوت منغم.. ودون أن يتردد أو يتلعثم:

★ هل أنت قيس بن الملوح؟

- نعم.. ماذا تريد..ومن تكون؟

★ أنا واحد من أشهر المحامين.. وقد وهبت عمري للدفاع عن المجانين.

.. على الفور تدخل المجنون في الحوار.. بل إنه تهيأ للشجار..

★ من قال إن المجانين مساكين.. وأنهم يحتاجون لأمثالك من المحامين؟

- لقد عرفت أن المدعو عمر بن أبي ربيعة.. قد ضرب قيس بن الملوح ضربة فظيعة.. وقد جئت للدفاع عن حقوق قيس.. والتنديد بما جرى له ليلة أمس.

★ ومن الذي طلب منك هذا؟

- جمعية الدفاع عن حقوق المجانين.

★ لابد أن تعرف الآن.. وقبل أن تهان.. أن عمر وقيس شاعران.. ولكل منهما شعر يجري على كل لسان.. ولا ينبغي أن يتدخل أحد بين الأصدقاء والإخوان.

- لكني دائماً أحب أن أتدخل.. وإلا عشت حياتي أتسول.

★ مادمت تحب التدخل لنصرة الحق.. فلماذا لا تحاول حل قضايا الغرب والشرق.. ولماذا تسكت إذا ارتكب الطغاة.. جرائم ضد الإنسانية وضد الحياة.. ولماذا تغمض عينيك عن صور القتلى في كل مكان.. لمجرد أن القتلة أعوان للطغيان؟

- يبدو أنك مجنون مثل قيس.. وعليك أن تعرف أن مهمتي تتركز في الدفاع عن المجانين.. وليس لي شأن بمن يجزون رقاب الناس بالسكاكين!

★ هذا هو العدل المبتور.. يبدو دائماً كالسلم المكسور.. يسقط منه من يحاول الصعود عليه.. أما المجنون فإنه يرفض أن يستند إليه.

- هذا كلام الحاقد الموتور.. كيف تقول إن العدل سلم مكسور.. ألا تخشى أن أغضب وأثور؟

★ لا يعنيني ما تظهره من غضب.. لكني أتعجب كل العجب.. ممن يقولون إنهم محامون.. لكنهم لا يتحدثون أبداً عن جرائم نيرون!

- قلت لك إني لا أعرف شيئاً عن هذه الجرائم!

★ ألم تسمع عمن يسرقون ثروات الشعوب.. ولا يترددون في إشعال نار الحروب؟

- لم أسمع!

★ ألم تسمع عما يعانيه الفلسطينيون.. حيث يغتالهم الصهاينة المتوحشون.. ثم يقلعون من الأرض أشجار الزيتون.. ويدمرون البيوت على من فيها.. دون أن يرحموا أحداً من ساكنيها؟

- لم أسمع!

★ ألم تسمع عمن قاموا باحتلال العراق.. ونشروا فيه بذور الشقاق.. وأخذوا يتحدثون عن الديمقراطية.. بينما هم يطلقون أفاعي الطائفية؟

- لم أسمع!

★ ما الذي سمعته إذن يا حضرة المحامي؟

- أنا سمعت عن حقوق المجانين.. وجمعيات الرفق بالحيوان.. حتى يعيش كل حيوان براحة واطمئنان!!

.. في هذه اللحظات.. ظهر عمر بن أبي ربيعة بكل ثبات.. واندفع نحو قيس وقبله بحنان.. ثم قال: فليبتعد عنا هذا المحامي الآن.. فالجنون فنون.. وكل من يحب فهو مجنون.. سواء أحب امرأة واحدة.. أو أحب نساء بغير عدد ولا حصر.. فالكل يحب الحياة.. وأنا حين ضربت أخي قيس.. كنت أريد أن أبعده عن اليأس.. وأن ينسى الحب الذي يتحول إلى عذاب.. حتى لا يشرب من كأس السراب.. وحتى يدرك أن الحياة.. يتجدد فيها الحب ويأتي من كل اتجاه.. كلنا مجانين.. لكننا لسنا من الجانين.. نحن لا نحمل السكاكين.. بل ننشد القصائد ونبدع الدواوين.. وبالتأكيد فإننا لسنا بحاجة لمحامين!

٤٠

كلاب الأبنودي ...
بين الرقة والشراسة وتناقضات السياسة !!

لســت مجنونــاً ولكــن الثعالــب
جعلتنــي أرنبــاً بــين الأرانــب
منذ أن قلـت لـوحش: كيـف تطغـى
عيشتي ضاقت ولم أصبح محارب
فتســليت بعشــب وبشــرب
واجتررت الهم في جحر المصائب
وإذا بــي واقــع في مــأزق
«مارقاً» صرت وتاريخي مشاغب
حـط «فيتـو» فـوق أعشـاب دمـاغي
فتدحرجت وأُرضعت المصاعب!

... شـوهد مجنـون العـرب، خارجـاً وقـد اكتسـى وجهـه بالغضب،وهو يردد الأبيات المذكورة أعلاه، دون أن يقول لـه أحـد: الله.. الله.. وعلى الفور تجمع حوله العقـلاء، وطلبـوا منـه فيمـا يشـبه الرجاء أن يفتح لهم أذنيه لكي يحسن الإصغاء، حيث قال له أحدهم: يا مجنون.. خفـض مـن صـوتك.. والأفضـل أن تـدخل في شـرنقة صمتك.. وقال آخر: هاتروح في داهية.. بينما قال ثالـث: هـايودودك ورا الشمس.. دفعه رجل له كرش مدبب.. وقـال لـه بصـوت باهـت

معلب: كن أرنباً مثالياً حتى تتسلى بالعشب وبالشرب.. وانزع من أضلاعك هذا القلب.. لأنه يوحي إليك بقصائد.. لن تجني منها سوى المكائد!

سكت المجنون لحظات.. ثم انطلقت من حنجرته عاصفة من التساؤلات.. بعضها مفهوم.. وبعضها ملغوم.. وبعضها مهموم.. حيث سأل العقلاء عن إمكانية تحوله من أرنب مشاغب.. لا يواجه غير المتاعب.. إلى أرنب لطيف ومثالي.. يجتر ما يجتر على امتداد الليالي.. كما حاول المجنون أن يعرف كيف سيروح في داهية.. وهل داهية قريبة أم نائية.. وماذا إذا رفض العقلاء أن يوصلوه إليها، أو حتى أن يدلوه عليها؟!

تفرق العقلاء من الناس، وكانوا من مختلف الأجناس، وتركوا المجنون يواجه «المصير» لكن الخوف كساه عندما اختفى يوسف شاهين بشكل غامض مثير،وخيل إليه أنه يسمع نباح كلاب، فانخلع قلبه وذاب، ولم تعد إليه السكينة، إلا بعد أن تقدم منه رجل ودود بخطوات هادئة رزينة، حيث عانقه بحرارة، وقدم له سيجارة.

همس المجنون بفرح يطل من عينيه: إزيك يا عبد الرحمن.. يا بتاع «حراجي القط» و«الخواجة لامبو العجوز» و«خالتك آمنة».. فين أيام زمان، قبل ما نبقى أرانب؟.. أنا لسه فاكر لك: «أنا ما بحبش أميركا.. ولا بأحب الغرب.. وإن كان ده في بلدنا تهمة.. قبلت أنا الاتهام».

ابتسم عبد الرحمن الأبنودي، وقال للمجنون: كيفك يا ولد العم؟.. ماذا تفعل الآن؟.. أحاول أن أتحول إلى أرنب مثالي.. ليس له هم إلا أن يجتر ما يجتر طول الليالي.. ضحك الأبنودي ضحكة مدوية صعيدية، وهو يتساءل عن طبيعة النظرية الأرنبية، خاصة وأنها أصبحت سائدة في كل دولنا العربية، وقال الأبنودي بحسم: أنا لا أهتم كثيراً بهذه النظرية لأنها بنت غير شرعية، لإفرازات الخوف من القوى الأجنبية!.. على أي حال فإني الآن مهتم بالكلاب.. وهنا.. انخلع قلب المجنون من جديد، وذاب؟! فعالج الأبنودي الأمر بهدوء، وقال للمجنون: أعتقد أنك لا تخاف من الناس، فإذا كان اعتقادي صحيحاً، فمن باب أولى، ألا تخاف من الكلاب، وينبغي أن تتذكر هنا أن بعض أصحابنا من القدماء والمعاصرين يحبون الكلاب أكثر من حبهم للناس.. ألم يقارن ابن

الرومي بين إنسان وكلب، وجاءت المقارنة لصالح الكلب:

«الكلب واف وفيك غدر .

ففيك عن قَدْره سفول

وقد يحامي عن المواشي

وما تحامي وما تصول»

.. قال المجنون بفرح وقد عادت إليه بقايا من شجاعته التي كان يتحلى بها قبل أن يتحول إلى أرنب:

. وأنا أتذكر أيضاً شاعر البؤس الذي مات في نفس السنة التي ولدت أنا خلالها.. أقصد.. عبد الحميد الديب.. لقد كان عبد الحميد الديب يتمنى أن يتحول الناس من ناس.. إلى كلاب.. لماذا؟.. هذا ما يوضحه هو بنفسه:

«ليت العباد كلاب، إن كلبتنا

لما تزل لحفاظ الود عنواناً

تحملت قسطها في البؤس صابرة

لم تَشْكُ جوعاً ولم تستجدِ إحساناً»

.. التقط عبد الرحمن الأبنودي الخيط بمهارة، وأشعل سيجارة، وهو يقول: أنا الآن أنطلق على نفس الطريق.. طريق ابن الرومي وعبد الحميد الديب.. صدقني.. أنا الآن مهتم كل الاهتمام بالكلاب، وما دمت قد أصبحت منها غير هياب، فإني سأروي لك حكايات عجيبة عن كلاب كثيرة، عرفتها في قريتي «أبنود» وقبل أن نفترق الآن، لابد أن أؤكد لك وللمجانين والعقلاء، على حد سواء،أن كلابي كلاب عجيبة،تجمع بين النفاق والشهامة، ولكل كلب منها علامة،وفضلاً عن هذا فإنها تجمع بين الرقة والشراسة،وإن كانت لها آراؤها الخاصة والعامة في تناقضات السياسة!

obeikandl.com

٤١

الأبنودي يضيع في الزحام .. وعمر الخيام يتزحلق في حمام !

.. في ليلة لفها بعباءته السكون، جلس عبد الرحمن الأبنودي مع المجنون، وأخذ الإثنان يقلبان صفحات التاريخ، وهما ينحتان قشر البطيخ، وفجأة ارتفع صوت المجنون، وهو يتحدث عن الإمبراطور «نيرون».. الذي كان قد صاح بمنتهى الثقة، إنه يستطيع فرض العدالة المطلقة، بينما الحقيقة أن معدته تشتاق، لالتهام وجبة صعبة المذاق، ولذا يريد أن يذوقها معه فتوات، لديهم أسنان وعضلات.. وهنا اكفهر وجه الأبنودي وقام، مطالباً بتغيير موضوع الكلام، واقترح على المجنون أن يُسمعه رباعيات الخيام، التي يؤكد أنها اكتشاف جديد وفريد، فانتعش المجنون في الحال، وتتنحنح قليلاً ثم قال:

سمعت كلباً نابحاً في السحر

نادى من الحي جميع الغجر

هبوا اركبوا بغل المنى قبل أن

يُسقط سقف البيت وقع المطر

لا تشغل الكلب بعظم الزمان

ولا بذيل «القط» قبل الأوان

واردم مـن الشـارع حفراتـه

فليس في حلق الليالي لبـان

آن لهـذا الكلـب أن ينبحـا

وفي سبيل العض أن يسرحا

فلـيس للتنكيـل مـن مـانع

ما دام نيرون الضلال صحا

.. تثاءب الأبنودي وصاح: لا يمكن للخيام أن يكـون بهـذا الكـلام قـد بـاح، فهـذا الكلام كله نباح، ولم يكتب الخيام أبداً عن أي كلب، وإنما كان يناجي القلب، والمنطـق يؤكد أن هناك فرقاً بين الكلب والقلب، فاسكت الآن يا مجنون، واتركني أتأمل في هـذا السكون.. ولم يتردد المجنون في رفض هذا المنطق، وقال: ليس هنـاك أي فـرق، فلكـل كائن قلب، للإنسان قلب، وكذلك للكلب!

ما هي إلا لحظات، بعدها اكتسى بالرعب وجه الأبنـودي ووجـه المجنـون، حيـث اقترب منهم رجل عجوز، يمسك بإحدى يديه أقدم كوز، وباليـد الثانيـة عنقـود عنـب، بينما تنذر عيناه بعاصفة من الغضب، حيث اندفعت من شفتيه صرخات، تحولت بعدها الكلمات إلى لكمات:

★ لقد كنـت نائمـاً منـذ عـدة قـرون، وصـحوت الآن لأكتشـف أن النـاس كلهـم يكذبون،وكل منهم يؤكد أنه الوحيد الصادق، ويقدم ما يزعم أنه وثائق، ولهذا تعكر نبع التاريخ الرائق!.

- اهدأ قليلاً وقل لي من أنت أيها العم الجليل؟

★ لست لك عماً، وإلا لكنت ازددت هماً وغماً.

- سامح جهلي.. وقل لي بالله عليك.. من أنت؟

.. هدأ الرجل قليلاً، وأشعل في الليـل قنـديلاً، وقـدم للأبنـودي والمجنـون عنقـود العنب، ثم أخذ يشرح لهما سر الغضب:

سأروي لكما كل شيء من البدء حتى الختام.. أنا أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام.. ولدت في مدينة من مدن الحب والنور.. اسمها «نيسابور».. وأظن أني قد ولدت في إحدى سنوات النصف الأول من القرن الخامس الهجري.. وأما حياتي فأنا وحدي الذي أعرف خباياها وليس أي أحد غيري.. ومن حقي الآن أن أغضب لأني كتبت مجموعة من الرباعيات.. تجمع بين الزهد واقتطاف الملذات.. وفيها من الحزن ما فيها.. مما تفصح عنه قوافيها.. ولكن المشكلة أن كثيرين جاءوا من بعدي، فنسبوا لي ما لم أقله وما لم أفعله.. وألفوا رباعيات ونسبوها بالكذب والزور لي.. أليس هذا مدعاة للغضب.. حين يقال إني كتبت ما لم أكتب.. وحين يقال إني قد حرضتُ على الفساد والمجون.. وتعديت على الجوهر المكنون؟!

قال المجنون للخيام.. بعد أن هدأ الغضب وساد الوئام.. أنا أحبك أيها الشاعر الهمام.. ولي صديق مغرم بما كتبت أنت من أشعار.. واسمه الدكتور يوسف حسين بكار.. وقد ألف عنك كتاباً جميلاً أسماه «الترجمات العربية لرباعيات الخيام»..

★ هل لك أن تذكر أسماء هؤلاء المترجمين؟

- إنهم كثيرون.. أشهرهم أحمد رامي وأحمد الصافي النجفي وجميل صدقي الزهاوي وعباس محمود العقاد وإبراهيم العريض.

★ هل ترجموا ما قلته أنا بأمانة.. أم أن في الأمر خيانة؟

- لا أستطيع أن أجيب بدقة، ولكن منهم من تعلموا اللغة الفارسية حتى يترجموا بدقة مثالية.

★ .. وأنا لا أصدقك.. خصوصاً أنني قد سمعتك تقول على لساني «سمعت كلباً نابحاً في السحر».. كما أني سمعت عن آخرين لا يعرفون اللغة الفارسية ولا حتى اللغة العربية، ومع هذا فإنهم تجرأوا وترجموا رباعياتي؟!

- هذا صحيح وأنا أتذكر واحداً من هؤلاء، واسمه أحمد سليمان حجاب.

★ هل تحفظ مما قاله شيئاً لكي أسمعه، حتى أزداد غيظاً؟!

- أرجو ألا تغتاظ أيها الخيام الهمام، فهذا الرجل مغرم بك أيما غرام.. وهذا بعض ما قاله:

سمعت صوت في السحر بينادي ع النايمين
بيصحي أهل الهوى.. وينبه الغافلين
املوا كاسات الصفا واتهنوا بأيامكم
دنيا زوال تنتهي.. وأهل العقول عارفين
طوت ايدين القدر أحباب ورا أحباب
غصون شباب انطوت جه بعد منها شباب
وسمعنا طير الصبا بيغني فوق مِنَّا
وفجأة طار واختفى واحترنا في الأسباب

... «أمرنا لله..».. تنهد الخيام وهو يطلق الآه بعد الآه، ويبلل مما في الكوز الشفاه.. بينما المجنون لا يدري إن كان ما في الكوز مما يجوز أو لا يجوز.. وفي هذه الأثناء هرب الأبنودي لينام.. وترك المجنون مع عمر الخيام.

ضحك الخيام وهو يقول:

«أفق خفيف الظل.. هذا السحر

نادى: دع النوم وناغ الوتر

فما أطال النوم عمراً ولا

قَصَّرَ في الأعمار طول السهر»

- بعد قليل.. استأذن الخيام من المجنون.. في دخول الحمام حتى يزيح عن جسده أوجاع القرون.. وجلس المجنون وحده، خائفاً أن يأتي إليه نيرون، خصوصاً بعد أن عرف أن نيرون يشعل النيران في المباني.. ثم يسأل الآخرين عن الجاني.. ويتوعد الجميع.. بأنهم لن يروا أبداً الربيع.. إلا بعد أن يسلموا له الجناة، لكي يقطع عليهم طريق الحياة.

أفاق المجنون مذعوراً على صوت ارتطام.. فقال لنفسه: يبدو أن الخيام.. قد تزحلق في الحمام.. واندفع المجنون، فلم يجد الخيام، وإنما وجد آثار صابون، عليها بصمات نيرون!.

٤٢

إشارات تاريخية وفنية

من حق قارئ «مجنون العرب» أن يربط بين رحلاته ومغامراته التي قام بها وبين الكثير من الأحداث السياسية البارزة التي شهدتها وما تزال تشهدها أرضنا العربية، فضلاً عن مناطق أخرى من العالم، من بينها روسيا وأفغانستان.

والواقع أن «مجنون العرب» قد كتب ما كتب من خلال تفاعله العميق مع هذه الأحداث السياسية البارزة، لكن الحدث الأكبر الذي شغل المجنون، يتمثل في محاولات ابتلاع العراق من جانب الإمبراطورية الأمريكية، وذلك من خلال التهديد باستخدام القوة العسكرية ضده إذا لم يكشف عما قيل إنه يمتلكه من «أسلحة دمار شامل» إلى أن تم بالفعل استخدام القوة العسكرية الأمريكية – البريطانية ضده، وتحقق الحلم الأمريكي بابتلاع العراق، بعد أن لعبت الخيانة دورها القبيح في تسليم بغداد لقوات الاستعمار الأمريكي. وقد رفض «مجنون العرب» – رغم الحزن الذي داهمه – أن يستسلم لليأس، وأخذ يراهن، وهو يمتطي صهوة الأمل، على مقاومة الشرفاء من أبناء العراق، وهم كثيرون بالطبع، لهذا الاستعمار البغيض الذي اتضح أنه يمتلك «أسلحة تضليل شامل» وبها استطاع أن يخدع الرأي العام العالمي ولو لبعض الوقت، كما اتضح أن هدف هذا الاستعمار لم يكن إسقاط نظام ديكتاتوري في

العراق، و«تحرير» الشعب منه كما قيل، وإنما هدفه «تدمير» كل مقومات الحياة، بل «تدمير» كل رموز الحضارات العريقة التي تعاقبت على أرض العراق، ثم الهيمنة المطلقة على ثرواته وخيراته، والانطلاق منها – فيما بعد – إلى دول أخرى عربية وإسلامية، بنفس الحجج المضللة والكاذبة.

لكن «مجنون العرب» يحب أن يوضح هنا أن تفاعله مع الأحداث السياسية، هو تفاعل مع جوهرها الكامن في الأعماق، وليس مع تفاصيلها العابرة والوقتية، أو مع مظهرها الخارجي، وذلك لأنه يريد أن «يتعمق» في كل حدث يتفاعل معه، لا أن «يعلق» عليه، لأن التعليق على الحدث هو مهمة الصحافة اليومية، أما التعمق فهو ما ينبغي أن ينهمك فيه الشعراء والأدباء والفنانون من خلال تفاعلهم مع معطيات السياسة، ولهذا السبب، يجد القارئ أن «مجنون العرب» قد عاش مع وقائع من التاريخ البعيد أو القريب، لكي يعيد التأكيد على المقولة العربية الشهيرة «ما أشبه الليلة بالبارحة».

★ تضم رحلات ومغامرات «مجنون العرب» قصائد عديدة، كتبها شعراء عرب عمالقة وكبار،وعلى الرغم من أن القارئ المتابع يستطيع أن يتعرف على أسماء هؤلاء الشعراء، إلا أني حرصت على وضع أبيات القصائد بين قوسين صغيرين «..» تمييزاً لها عن القصائد التي كتبها «مجنون العرب» زاعماً أنها لبعض الشعراء العرب العمالقة والكبار، بينما الحقيقة أنه هو الذي كتبها، وليس سواه، وعلى سبيل المثال فإن المتنبي بالطبع هو الذي قال:

«إذا رأيت نيوب الليث بارزة

فلا تظنن أن الليث يبتسم»

لكن المتنبي لم يقل الأبيات التالية التي نسبها له «مجنون العرب»:

تحاصرني الأحزان والليل يمتد

وطوفان هولاكو يعود فيشتد

أبعد انتظاري للنهار مؤرقا

أرى الشمس لم تشرق بما وعد الوعد

أرى جـــرح عشـــتار الأبيـــة صـــامتاً

وفي صـمته حـزن طغـى مـا لـه حـد

«ومن تكـد الـدنيا» عـلى النـاس أن يـروا

«عـــدواً» لهـــم مـــا مـــن إطاعتـــه بـــد

ولكنتـــــي أدري بـــــأن قلـــــوبهم

بـرغم المآسـي سـوف تصـحو وتحتـد

ولهذا السبب أرجو أن يتنبه القارئ إلى وجود أقواس أو عدم وجـود أقـواس، وهـو يتابع القصائد المبثوثة في ثنايا رحلات ومغامرات المجنون.

★ هناك قصائد، تصور ظواهر اجتماعية وإنسانية في المجتمع العربي – الخليجي، وقد كتب المجنون هذه القصائد على ألسنة أشخاص من أبناء هـذا المجتمـع العربـي – الخليجي، وتحديداً في قطر، أو على ألسنة أشخاص آخرين من الوافـدين الـذين جـاءوا للعمل في دول الخليج العربية، وعلى الرغم من أن هذه القصائد عمودية ومكتوبة بلغتنـا العربية العريقة– الفصحى، فإنها تتضـمن كلمـات محليـة، بعضـها لـه أصـول في لغتنـا الفصحى، وبعضها ليس كذلك، كما تتضمن هذه القصائد كلمات مـن اللغـة الأورديـة الّتي يتكلمها كثيرو من الهنود والباكستانيين الذين يعملون في دول الخليج العربية.

ولابد هنا من الإشارة إلى بعض الكلمات المتداولة وفقاً للهجة الخليجية– القطرية:

– «يتطنز».. بمعنى «يتهكم» أو«يسخر».

– «فريج».. بمعنى «حي».. أو «منطقة».

– «يشلح» السروال.. بمعنى «يخلع» أو «ينزع».

– «الجوتي».. هو «الحذاء».

– «الكشمة».. هي «النظارة» الشمسية أو الطبية.

– «وين».. بمعنى «أين» بالفصحى و«فين» بالعامية المصرية.

– «متروس».. بمعنى «ممتلئ» أو «مزدحم».

– «الدلاغ».. هو «الجورب».

- «وايد».. بمعنى «كثير».
- «بنشر التاير».. أي «تمزق إطار السيارة».
- «ماكو».. كلمة عراقية شهيرة، معناها «لا يوجد».
- «الدعمة».. حادث اصطدام سيارة بأخرى.
- «الليت».. «النور».. «الكهرباء».
- «معفوس».. قد تعني «الانهماك في عمل ما» وقد تعني «تبعثر الأشياء».
- «الدياي».. هو «الدجاج».. بعد قلب الجيم ياء، ومثلها «مسيد» أي «مسجد». وكذلك «ريال» أي «رجال» وهو «الرجل».
- «الكفخ».. «الصفع».

ومن الكلمات المتداولة أيضاً، وهي من اللغة الأوردية:

- «الدوبي».. «مغسلة الثياب» أو «اللوندري» بالإنجليزية.
- «أتشا».. بمعنى «صحيح» أو «زين» باللهجة الخليجية أو «كويس» باللهجة المصرية.
- حين يتحدث الإنسان الهندي باللغة العربية أو باللهجة المحلية في الخليج، فإنه يجعل ضمير المتكلم ضميراً للغائب.. مثل «أنا يروح».. «أنا يشتغل».. «أنا يبغى ياكل».

★ يقر «مجنون العرب» أنه ليس عضواً في أي حزب سياسي، سواء أكان علنياً أو سرياً، وأنه لم يرتكب طيلة حياته جريمة ذبح دجاجة، وإن كان قد دهس ذات مساء فأراً بسيارته، كما أنه يعترف بأنه عضو في «تنظيم المائدة» بحكم كونه إنساناً، يحب أن يأكل وأن يشرب، وأخيراً فإنه يعترف بأنه إنسان عربي، رغم كل المآسي التي شهدتها وتشهدها الأمة العربية التي ينتمي إليها أعمق انتماء.

★ ليس لدى «مجنون العرب» أسلحة دمار شامل، يمكن أن يهدد بها القراء «العقلاء» لكنه يطالبهم – بشدة – أن يتواصلوا معه عبر وسائل الاتصال القديمة أو العصرية على حد سواء.

هذا.. ويؤكد «مجنون العرب» في خاتمة هذه السطور على ضرورة التواصل معه والتفاعل مع ما قام به من رحلات ومغامرات.. وإلا فإنه قد يقوم بتحويل العقلاء إلى مجانين بصورة فجائية، ودون سابق إنذار.